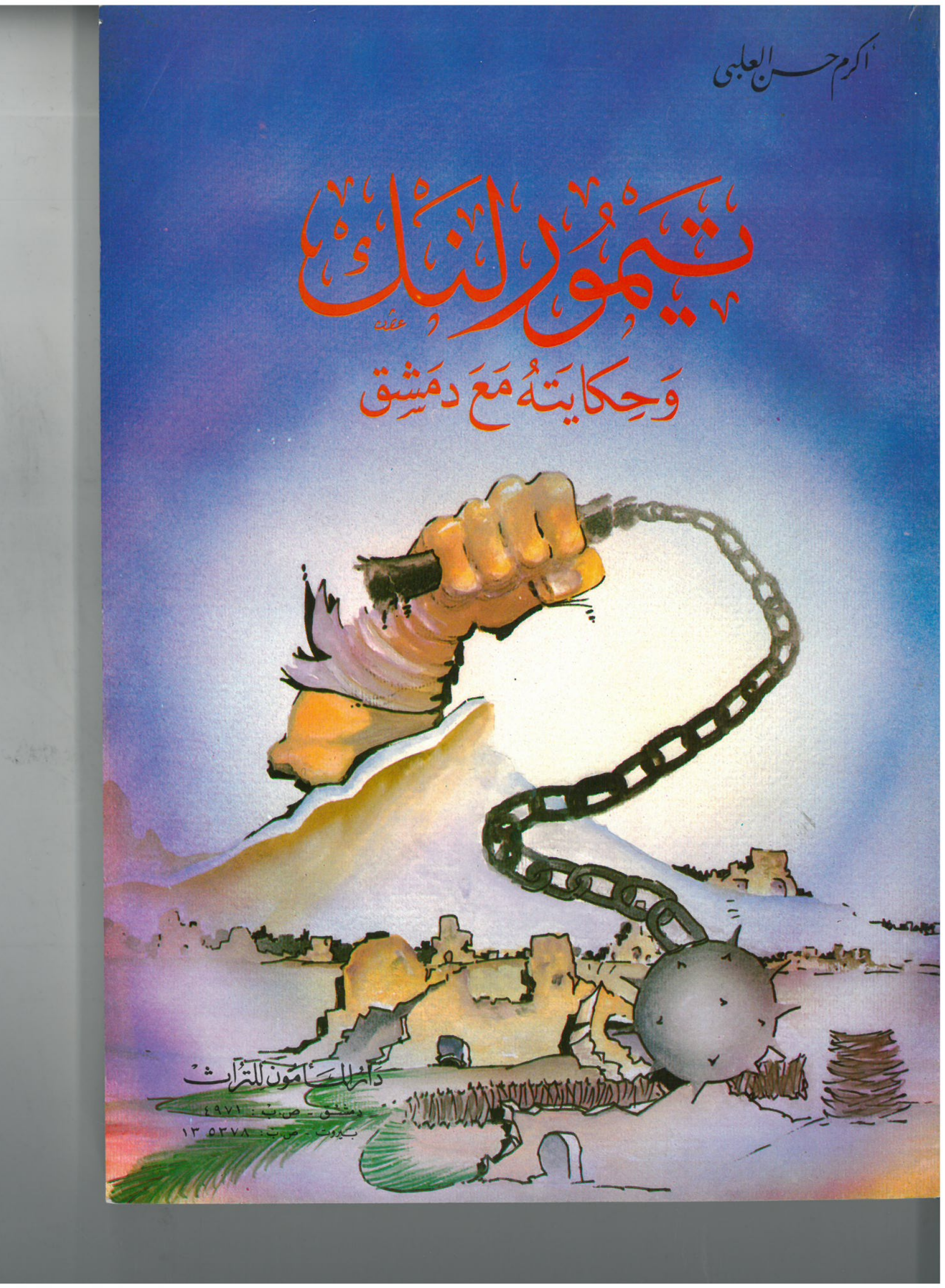

أكرم حسن العلبي
تيمورلنك
وحكايته مع دمشق
دار المأمون للتراث
دمشق - ص.ب : ٤٩٧١
بيروت - ص.ب : ١٣٥٢٧٨

ـــ الطبعة الرابعة ـــ
١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م

تيمورلنك

وحكايته مع دمشق

«معاشر الشّهداء، لا تنسونا من
الشفاعة يوم القيامة، لأننا
كنّا السبب في استشهادكم ودخولكم الجنّة»

«تيمورلنك»

دار المأمون للتراث
دمشق - ص.ب: ٤٩٧١
بيروت - ص.ب: ١٣ ٥٣٧٨

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس

......*.......

المقــدّمَة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

تعرضت بلاد الشام ومصر، خلال تاريخها الطويل، إلى حروب ونكبات وفتن من الداخل والخارج، وكان أخطر هذه الحروب، وأطولها، تلك الحروب الصليبية، التي شنتها أوروبا بهدف القضاء النهائي على الوجود العربي الإسلامي.

وفيما كان المسلمون يقاومون ذلك الخطر، ظهرت في الشرق قوة جديدة مدمرة، هي قوة المغول، أو التتار، الذين ما لبثوا أن تحالفوا مع الصليبيين ضد العالم العربي الإسلامي.

وما كاد المسلمون يدمرون المغول والصليبيين، حتى ظهر ذلك الوباء الأصفر الرهيب في سمرقند، ثم أخذ ينتشر ويمتد، حتى أتى على الأخضر واليابس، وحوّل آسيا، من بلاد الشام إلى حدود الصين، إلى بلاد منكوبة تنعق فيها الغربان، ويسيطر الموت والخراب عليها، ويعيش أهلها وأحفادهم، على ذكريات كئيبةٍ مفزعةٍ، من قرن إلى قرن، ولم يكن ذلك الوباء الرهيب القاتل والمدمّر إلّا رجلاً لا يستطيع الوقوف سوياً على قدميه، ولكنه مع ذلك، كان يحمل في نفسه كلَّ ما عند البشر من الحقد واللؤم والمكر والدهاء، والرغبة في الدمار وسفك الدماء، ذلكم هو تيمورلنك.

ونظراً لأن الحروب الصليبية قد نالت حظها من البحث والدراسة، فقد رأينا أن من واجبنا أن نقدم صورة واقعية وواضحة عن الغزو التيموريّ لبلاد

الشام عموماً، ولدمشق بوجه خاص، ليطلع أبناء تلك المدينة الخالدة، التي كانت في يوم من الأيام عاصمة الأمويين، على ما عانته مدينتهم الصابرة على مرّ العصور من محن وويلات وكوارث، وذلك لعلمنا بضآلة ما قدم من أبحاث ودراساتٍ جادةٍ عن ذلك الغزو الرهيب، الذي لم يشهد له التاريخ مثيلاً.

وعلىٰ الرغم من ارتباطنا القويّ بدمشق، وحبّنا لها، فإننا حاولنا بما وسعنا، أن نقدم دراسةً علميَّةً موضوعية تعتمد على الحقيقة العلميّة كما دوّنها المؤرّخون المعاصرون للأحداث، بدون وعظ أو توجيه أو محاباة، وقد أعطينا لأنفسنا الحق في المقارنة وإبداء الرأي عندما تدعو الضرورة، لأن ذلك يُعَدّ حقاً مشروعاً، بل واجباً علمياً، طالما أنه لا يمَس الحقيقة التاريخية.

إننا عندما نذكر المصير الرهيب الذي حلّ ببلادنا نتيجة تخاذل حكامها عن الدفاع عنها، إنّما نبين للأجيال التي تعيش اليوم في بلاد الشام، ما الذي يمكن أن يحلّ بها، إذا استسلمت للدعةِ والرخاء، وتخلّت عن الكفاح المسلح ضد أعدائها.

وإن ما نقدمه في هذه الصفحات ليس إلّا محاولةً للتعرّف على تيمورلنك وبلاد الشام في ذلك العصر الذي كانت الكلمة العليا فيه للسَّيفِ، والويل للمغلوب.

وهذا التاريخ الذي نقدمه اليوم، هو أولاً وآخراً، تاريخ لأجدادنا في بلاد الشّام، وليس تاريخاً للمغول أو الأتراك أو تيمورلنك.

لقد حاولنا جاهدين إبراز معاناتهم وآلامهم وآمالهم، وكيف عاشوا أيامهم العصيبة، ولا سيّما يوم اجتاح تيمورلنك بلادهم، ويوم عصفت بهم رياح الفرقة والفشل فجعلتهم يدمرون مدينتهم بأيديهم...

لقد ارتبط اسم تيمورلنك بدمشق خاصَّةً، وصار اسمه مجالاً للتندر على أهل دمشق من دون جميع مُدن الشام، فأحببنا أن نضع النقاط علىٰ الحروف، في محاولة لتسجيل الحقيقة، حقيقة حكاية دمشق مع تيمورلنك،

وقد تبدو بعض الوقائع غريبة، وهذا أمر عادي، لأن الحقائق تكون في بعض الأحيان أغرب من الخيال.

ولن نزعم أننا نقدم دراسةً شاملةً لعصر تيمورلنك، لأنّ هذا لا يعني القارىء العربي كثيراً، فضلاً عن أنّ دراسة كهذه قد تبدو جافّة بعض الشيء، وكل ما في الأمر، أننا تعرّضنا لتيمورلنك في نشأته وتطوّره بالقدر الذي يساعدنا على تقديم أوضح صورة ممكنةٍ عن نكبات الشّام على يديه، وقد بذلنا في ذلك ما وسعنا من جهد، وهذا ليس تزكيةً منّا للبحث، بقدر ما هو اعتذار مسبق، لمدينة دمشق الخالدة الشامخة، عمّا قد يكون عملاً دون قدرها ومكانتها وعظمتها.

نسألُ الله العليَّ القدير أن يكون ما كتبناه خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به الناس، والله من وراء القصد، وفوق كلّ ذي علمٍ عليم.

أكرم حسن العلبي

دمَشْقُ

رمضان ١٤٠٧ هـ

الفصل الأوّل

التعريف بتيمُورلنْك

١ ـ مَولدهُ.
٢ ـ أُصُولُه.
٣ ـ اسمُه وألقابُه.
٤ ـ نشْأتُه.
٥ ـ تَوَسُّعُهُ.
٦ ـ عَائِلَتُهُ.

١ ـ مولــده:

اختلفت الآراء حول تاريخ ولادته، فقد ذكر مؤرخو الفرس وابن خلدون ومؤرخو الغرب، أن ولادته كانت سنة ٧٣٦ هـ ـ ١٣٣٦ م.

وذكر المؤرخون العرب المسلمون في مصر والشام كالمقريزي وابن تغري بردي، وابن حجر وغيرهم، أنه ولد سنة ٧٢٨ هـ ـ ١٣٢٨ م، مستندين في ذلك، على ما يبدو، إلى ما ذكره تيمورلنك لعلماء حلب سنة ٨٠٣ هـ ـ ١٤٠٠ م، من أن عمره آنذاك كان خمساً وسبعين سنة.

ونحن لا نستطيع الجزم بتاريخ محدد لولادته، لأنه لم يكن له كبير شأن حتى يهتمّ به المؤرّخون منذ ولادته، وإنْ كنّا نميل إلى ترجيح الرواية الأولىٰ، لأن قومه أدرى من غيرهم بمولده[١].

وكانت ولادته في قريةٍ تسمّى «خَواجَه إيلغَار» وهي من أعمال «كِشّ» في بلاد ما وراء النهر، وتبعد عن سمرقند مسيرة ثلاثة أيَّام، وهي اليوم في جنوب الاتحاد السوفيتي.

---

(١) إنباء الغمر ١٧/١، وعجائب المقدور ص ٣، وسنرمز له بـ«عربشاه».

وقد زعم عدد من المؤرخين، ومنهم ابن خلدون، أنّ ولادته، قد سُبقت بتنبؤاتٍ عن ولادة رجل عظيم.

فقد جاء في المذكرات[1] المدونة عنه، أن منجّماً فارسياً ماهراً، قدم إلى ما وراء النهر سنة ٧٣٠ هـ - ١٣٣٠ م، وزعم أنه قد جاءه من العلم عن دوران الأفلاك، أنه سيولد من رحم إحدى النساء، مولود يكون فتح العالم على يديه.

وأما الأحوال الفلكيّةُ الملائمةُ التي وُلد فيها تيمُورلنك فهي ناجمةٌ عن اقتران كوكبي زحل والمشتري، بما كان يدعوه المنجّمون بالمثلثةِ الهوائيّةِ العُلوية.

ويؤكد مؤرخ الفرس «حافظ آبرو» ذلك الزعم، فيقول: «إنه من المؤكد أن ذلك إنما تم بتدبير سماويّ».

وكانت ولادتُه في زمن اقتران زحل والمشتري سبباً في أنّه أصبح يُلقّب بـ«صاحب القران السّعيد» وكان هذا من أشهر ألقابه.

ويزعم مُؤرِّخو تَيمُورلنْك، أنّ العام الذي شهد في شهر ربيع الأوّل وفاة آخر سلاطين الإيلخانيين[2]، قد شهد في شهر شعبان طلوع شمس السلطنة، عندما ولد الأمير صاحب القران السعيد[3].

وروى «ابن خلدون» لتيمورلنْك، عندما اجتمع به في دمشق، أنه قد سمعَ بالمغرب، قبل لقائه بتيمورلنك، كثيراً من الحدثان عن ظهوره،

---

(١) المذكرات تتألف من مجموعة من «التوزركات» أي القوانين، ومجموعة من «الملفوظات» أي المذكرات، ويقول Bouva في الموسوعة الإسلامية، إنه يشك كثيراً في صحة نسبتها لتيمورلنك، والأرجح أنها وضعت له، بعد وفاته.

(٢) الإيلخان تعنى نائب الملك، وهم المغول من خلفاء هولاكو.

(٣) تيمورلنك للدكتور مظهر شهاب /١١٣ - ١١٤ وسنرمز له بـ«تيمُورلنك».

وزعم أن المنجمين، كانوا يترقبون عام ٧٦٦ هـ - ١٣٦٤ م باهتمام بالغ.

ثم يقول: «لقد لقيتُ ذات يوم من أيّام سنة ٧٦١ هـ - ١٣٥٩ م بجامع القَرويّين بفاس، الخطيبَ أبا علي بن باديس، وكان ماهراً في فن التنجيم، فسألته عن هذا القران المتوقع، فقال:

«يَدلّ على ثائرٍ عظيم في الجانب الشمالي الشرقي، ومن أمّةٍ باديةٍ أهل خيام، تتغلب على الممالك، وتقلب الدول، وتستولي على أكثر المعمور، فقلت وما زمنه، قال: سنة ٧٨٤ هـ - ١٣٨٢ م».

ويقول ابنُ خلدون أيضاً:

«ولقد كتب إليّ بذلك، الطبيبُ ابن زرزر اليهوديّ، وكان شيخي محمد الآبلي يقول إن أمرَه قَريب ولا بدّ لك إن عشت أن تراه».

وأما الصوفيّة، فكنا نسمع عنهم بالمغرب ترقبهم لهذا الكائن، ويرون أن القائم به، هو القاضي الفاطمي المشار إليه في الأحاديث النبويّة، من الشيعة وغيرهم، وقد أُخبرتُ أنّ الشيخَ أبا يعقوب الباديسيّ، كبير الأولياء بالمغرب، قال في عشر الأربعين والسبعمائة: إن هـذا اليوم، يعني سنة ٧٣٦ هـ، ولد فيه القائم الفاطميّ»[1].

وقد ذكر ابنُ خلدون كلَّ ذلك لتيمورلنك في دمشق، وغنيٌّ عن البيان، أنّ ما ذكره، هو ومؤرخو الفرس، لا يخرج عن كونه «نفاقاً سياسياً»، أراد به الآخرون تعظيم سيدهم، وأراد به ابن خلدون التقرب إليه، ودفع شروره.

وقد ذكرنا ما قيل في ولادته، على سبيل العلم بالشيء، وليس من

---

(١) لقاء ابن خلدون وتيمورلنك/٦٩ وسنرمز له بـ«لقاء».

باب الحقيقة العلمية. والملاحظ أن ولادة المشاهير أو وفـاتهم، يرافقها في العادة، تهويلات كثيرة، ورؤى غريبة، تعدّ لتخدم صاحب القضية، وغالباً ما يكون ضررها عليه أكثر من نفعها.

ولو رجعنا إلى جميع الكتب التي وُضعت في النصف الأول من القرن الثامن الهجريّ، أي في الفترة التي ولد فيها تيمورلنك، ما وجدنا فيها شيئاً عن هذا القران السّعيد، لأنّ تيمورلنك كان في ذلك الوقت، صعلوكاً لا يؤبه له.

ومن جهةٍ أخرىٰ، يقول تيمورلنك، إن جدَّتَهُ، وكانت من ذوات العيافة والكهانة، رأتْ مناماً، وعبّرته بأنه يظهر لها من الأولاد والأحفاد، من يدوّخ البلادَ ويملك العبادَ، ويكون صاحب القران، وذلك هو أنا ـ يعني تيمورلنك[1].

ويقول عبد الباسط الحنفي: إن رجلاً من التتار العارفين بما يقولون، أخبره أن تيمورلنك لما توجّهَ إلى «سراي» لأخذها، خرج إليه رجل من الأولياء ليشفع عنده في الناس، وقبل أن يصل إليه، رأى الخَضِرَ عليه السلام، يسيرُ مع عسكر تيمور، فقال له: أنت أيضاً معه؟ فقال الخضر: إذا كان الله معه، أفلا أكون معه؟ فرجع ذلك الولي ولم يجتمع بتيمورلنك[2].

وغني عن القول: أن هذه إحدى الروايات الكثيرة الملفّقة، التي وُضعت لتيمورلنك، لإحاطته بهالةٍ من القدسيّة والرّوحانية، ولجعل الناس يستسلمون لأعماله بوَصْفِهِ مؤيداً من الله تعالى، والله تعالى، أكبر من أن يتخذ المضلين عضداً.

(١) عربشاه /٨.

(٢) استدراكات عبد الباسط الحنفي، على إنباء العمر، طبعة دمشق، تحقيق محمد أحمد دهمان ١/١٩.

وبالمقابل، يذكر «عربْشـاه» رواياتٍ مضـادة، عما رافق ولادة تيمورلنك، ثم يُؤوِّلها فيقول:

«رُؤي ليلة ولد، كأن شيئاً شبيه الخوذة تراءىٰ طائراً، ثم هوى إلى الأرض، وتطاير منه الجمر والشرر وتراكم حتّى عمّ الجوّ كله، فسئل العرافون عن ذلك فقالوا:

«يكون شُرطياً، وقال آخرون: بل ينشأ لصّاً حرامياً، وقال قوم: يكون قصّاباً سفاكاً، وقال غيرهم: يصير جلّاداً»[1].

كما أورد «ابن الفرات» أن رجلاً بالقدس، رأى مناماً سنة ٧٩٥ هـ ـ ١٣٩٣ م مضمونه أن إبراهيم الخليل، وجماعةً من الأولياء توجّهوا لحرب الباغي تيمورلنك[2].

وهكذا نرى أن هناك «منامات»، «ومنامات مضادّة»، وهذه بتلك.

٢ ـ أصوله:

لا بد من الإشارة مسبقاً، إلى أنه كما اختُلف في تاريخ ولادته وما رافقها، فقد اختُلف في نسبه وأصله، حيث نجد أن محبّيه وأنصارَه وضعوا له سلسلة نسب تليق بمقامه عندهم، بينما وضع له المؤرخون العرب المسلمون، سلسلة أخرى تناسب مقامه عندهم، وسنعرض لجميع الآراء، محاولين تقويمها وتمييز الغثّ من السّمين منها.

أمّا الرأيُ الرسميُّ، فهو ما ورد على «شاهدة» قبره بالعربيّة، ومما جاء فيها:

«هنا مرقد السّلطان الأعظم، الخاقان الأكرم، أمير تَيْموركوركان

(١) عربشاه /٤.

(٢) تاريخ ابن الفرات ٣٤٨/٩.

ابن الأمير تُرغَاي، . . . . . . ابن الأمير تومْناي خان، بهذا يشعب نسب جنكيزخان . . . .

وحصل إلى السلطان الأمجد، المدفون في هذا المرقد، غاية الشرف والفضل، فإن جنكيزخان المذكور. . . ابن الأمير بُوذَنْجر ولم يعرف والد لهذا الماجد، إلاّ أن أمَّه «آلاغْوا»، حكتْ وكان شيمتها الصّدق والعفاف، ولم تكُ بغيّاً، أنّها حملتْهُ من نورٍ دخل عليها من أعلىٰ الباب، فتمثل لها بشراً سويّاً، وذكر أنه من أبناء أمير المؤمنين، علي بن أبي طالب، فصدقها في كل دعواها عليه، أولادُها الأمجاد في كل زمان ومكان»(١).

هذا الكلام كله، مكتوب على الشّاهدة. . .

ومنه يتبين أن واضعي نسبه، جَعلوه يجتمع مع جنكيزخان عند جد مشترك لهما هو «تُومْناي»، بحسب رواية مؤرّخيه، ولم يكن كاتب هذه الشّاهدة بحاجة إلى ذكر تلك السلسلة الطويلة من نسب تيمورلنك، حتى يثبت وجود قرابة بينه وبين جنكيزخان، فإن أعمالهما تؤكد أنهما من أصل واحد في المبدأ وليس في الدم.

أما عن سلسلة النسب المذكورة فمشكوك فيها، وواضح أنها وُضِعَتْ لتعظيم تيمورلنك بعد وفاته، كما عظموه في حياته، والدليل على ذلك بسيط، وهو أن «ابن عربشاه» الذي أقام طويلاً في بلاد تيمورلنك في ما وراء النهر، ذكر أنّه قرأ في كتاب فارسيّ يدعى «المنتخبْ»، أنّ تيمورْلنك يجتمع مع جنكيز خان من جهة أمه «تكينة خاتون»(٢)، أي ليس من جهة الأب، كما دون على قبره.

(١) E. Clachet: L'histoire de monogoles London: 1910. P.P. 60 - 61.

(٢) عربشاه/٧.

وهكذا تضاربت الآراء بين المؤرخين، لتظهر الحقيقة من بينها وهي الرغبة في ربط تيمورلنك بجنكيز خان.

أما عن المعجزة الأخرى لتيمورلنك، كما ذكر على الشاهدة، وهي أن جدّته «آلاغوا» التي تمثل لها عمود النور، بشراً سويّاً من ذرية علي بن أبي طالب، فحملت منه، فيبدو أن مؤلفها، التبست عليه الأمور، وكل ما في الأمر، إن صحت الرواية، أن رجلاً دُخل على جدته المذكورة، مع شروق الشمس، فأنجبت منه تلك الذرية: ذرية جنكيز خان، وهولاكو وغازان وتيمورلنك ومن جاء بعدهم. . .

وهذا يؤكد ما سبق أن قُلناه، من أنّ كُتّاب السِّيَر والتاريخ الرسميين أشدُّ ضرراً على من يكتبون لهم من أعدائهم. ويبدو واضحاً أن واضع تلك الرواية شبَّه ولادة تيمورلنك، بولادة المسيح عليه السلام، لإضفاء طابع القدسية عليه.

أما رأيُ أبيه تُرغاي في نسبه، فقد أوردتْه المذكراتُ التي جاء فيها أن تيمور، عندما بلغ السادسة عشرة، سأل والده أن يحدِّثَهُ عن تاريخ آبائه وأجداده، فزعم «ترغاي» أنّ نسبه ينتهي هذه المرة إلى «يافث بن نوح»، الذي كان يلقب بأبي الأتراك، وقد انتشر أبناؤه وأحفاده في تركستان.

ويقول «ترغاي»: إنّ «قراجار» أحد أجداد تيمور، كان أول من دان بالإسلام، ونبذ المجوسيّة، وهو الجد الرابع لتيمور.

أمّا جدُّه المباشر - بركلي - فقد كان يحمل رتبةً عسكريّة في دولة الجغتائيين(١)، ثم آثر الانسحاب من منصبه، واكتفى بإدارة أملاكه في كيش، حتى آلت إليه زعامة قبيلة «البرْلاسْ» التي هي قَبيلة تيمور.

(١) جغتاي: أكبر أولاد جنكيز خان، أقام دولة في ما وراء النهر فنسبت إليه. راجع الموسوعة الإسلامية، أول الجزء السابع.

هذا هو الرأي الرسميّ عن أصول تيمور.

٣ ـ اسمُهُ وألقَابُهُ:

اسم تيمورلنك الأصلي هو:

ـ **تَيْمُورْ**، ويقول «ابن عربشاه» أنه يلفظ بكسر التاء، وليس بفتحها، كما هو شائع، ويؤيد هذا الرأي ما ذكره «عبد الباسط الحنفي» في استدراكاته على إنباء الغمر، إذ يقول: إن هذا اللفظ، أي كسر التاء، هو لفظ الأتراك الذين وضعوه، ثم استعمله التركمان بالصيغة نفسها، وصار قوم يستبدلون الدال بالتاء فيقولون دِمَر، ومنها «دِمِرداش»، وكان ذلك شائعاً في بلاد فَارس وما وراء النَّهر، وهي بلاد تيمور[1].

غير أنّ المذكرات، تُورد رأياً سخيفاً للغاية، في محاولة لجعل اسم تيمور عربياً، فتقول إن والده «ترغاي» حمله إلى أحد رجال الدين، ولما دخل عليه وجده يقرأ:

«أَأَمِنْتُم من في السماءِ أن يَخْسِفَ بكُمُ الأرضَ فإذا هي تمورُ» ثم قال الشيخ: لقد سمينا ابنك تيمور.

وقد غلب عند العرب أن يلفظوا اسمه بفتح التاء، وهو خطأ شائع لا ضرر منه، أما معنى «تيمور» فهو: الحديد.

ـ اللّنك:

ومعناها «الأعرج» وهو اللّقب الذي اشتهر به. ولا سيّما عند

(١) إنباء الغمر ١/١٥، طبعة دمشق بتحقيق الشيخ محمد أحمد دهمان. وقد آثرنا كتابة اسمه كما هو شائع تيمورلنك، بالفتح.

أعدائه الذين أذاقهم من ويلاته، ويقال: إنه سُمّي كذلك لسهمٍ أصابه في فخذه، إما في غارةٍ له، أو عندما كان يسرق خروفاً.

وأحياناً يُطلقون عليه لقب «اللنك» وحده، استخفافاً به، وعلى هذا فإن معنى «تيمورلنك» الحديد الأعرج.

ومن ألقابه الكثيرة الأخرىٰ:

ـ **كُوْرْكَان أوكر**: أي صهر الملوك، ولقب به عندما اقترن ببنات الملوك، في بداية حياته.

ـ **صاحب القران السعيد**: وقد سبق الحديث عن هذا اللقب[1].

ـ **الأمير**: كانوا يطلقون عليه هذا اللقب، لأنه كان نائباً عن «صَرْغَتْمش» الذي نصَّبه على عرش سمرقند كما سنرى بعد قليل.

ـ **الطاغية**: أطلقه العرب المسلمون عليه في عهد المماليك.

ـ **جنّت مكان**: أي ساكن الجنان، وهو لقب أفيض عليه بعد وفاته.

ـ **سليل جنكيزخان**: أطلق عليه يوم جلس على عرش بلخ سنة ٧٧٣ هـ ـ ١٣٧١ م.

ومن ألقابه الأخرى:

خليفة جغتاي، «وقهرمَان الماء والطين»، وقاهر الملوك والسلاطين، والقطب، أو قطب الدين[2].

٤ ـ نشأته:

ينتمي تيمُورلَنْك إلى فرع «كركن» من بيت «برْلاس»، وكان أبوه

(١) لقاء تيمور/٨٩.

(٢) انظر: الموسوعة ٦/١٥٩ وما بعد، والنجوم الزاهرة ١٣/١٦٣.

«ترغاي» (ومعنى اسمه: طائر الدج)، شيخاً لقبيلة برلاس.

ويقول مؤلف «تاريخ بُخارى»:

إنّ ترغاي، قد نشّأ ابنَه تيمور على التمسك بسنن الإسلام القويمة، ونمّى فيه مشاعره السياسية التي كانت تهدف إلى تقويض أركان دولة المغول[1].

ويزعم تيمور في سيرته، أنّه كان من عداد الحكماء فيقول:

«أخذتُ منذ الثانية عشرة، أستوعب كتب الحكمة العالية، والقوة الخارقة، كما حملتُ نفسي على الإباء والرزانة بإزاء من حولي، وحين بلغت الثامنة عشرة، كنت شديد الاعتزاز بما بلغتُه من مهارة في الصّيد، وألعاب الفروسيّة، كما كنت أمضي وقتي في قراءة القرآن، ولعب الشطرنج وهوايات أخرى».

أمّا عربشاه، فيقول عن هذه الفترة من حياته: «إنه سَرَق غنمةً فضربه الراعي، فسبب له هذا التشوّه في فخذه، وإنه رافق أربعين رجلاً من قطاع الطرق، من أمثال: قماري، وسُليمان شاه، ومهانشاه، وجاكو، وسيف الدّين، وصاروا يقطعون الطريق، وقد كان يُصرِّحُ لهم بأنه سيتولى المُلك، وسيكون له شأن».

ثم يقول:

«إنه كان في كشّ شيخ يدعى «شمس الدين الفاخوري»، دعا له، فتعرّف تيمورلنك بطريق المصادفة على راعي خيل السّلطان حُسين، فأعجب بمهارته في معرفة الخيل، فألحقه بخدمته، ثم حل محله بعد وفاته، عند السلطان حسين، في عاصمته بلخ».

ثم يعود فيقول:

(١) تاريخ بخارى، تأليف أرمنيوس بن فامبري، وترجمة أحمد الساداتي، والكتاب ملحق بكتاب عجائب المقدور لابن عربشاه ص ٣٦٩.

«إن ثمة رواية أخرى مؤداها أن أباه «ترغاي» كان أمير مائةٍ عند السلطان، فخلفهُ تيمور»[1].

ويقول «أرمنيوس»: إنّه عندما بلغ تيمور العشرين من عمره، خصّهُ أبُوه بحصن «أول»، ليتقرب من أمير تلك المنطقة المدعو «قزغان» والذي كان أبوه يحكم تحت لوائه.

وكان تيمُور قد أُوفد في مهمةٍ رسمية سنة ١٣٥٦ م ٧٥٨ هـ إلى (قزغان)، فأُعجب به، وزوَّجه حفيدته، وصار يحارب تحت لوائه، ثم سرعان ما اغتيل (قزغان)، وتوفي ترغاي، فاضطر تيمور للتحالف مع الأمير حسين، حفيد قزغان، وصار من جملة قادته، ثم أصبح حاكماً على «كش» وأعمالها، إلى أن هاجم البلاد «تَغْلِقْ تيمور» حاكم سمرقند، فاضطر تيمور إلى الفرار مع نفر من أصحابه إلى الصحراء، بين بخارى وبحر الخزر، وهناك أُعيد «صَبُه» من جديد، بعدما صهرته هذه الحياة القاسية الطويلة التي تعرض فيها لصنوف العذاب والقهر والحرمان، كما يروي هو عن نفسه[2].

وربما كانت هذه الفترة هي التي عناها «ابن عربشاه» حينما تحدث عن اتصال تيمور مع قطاع الطرق.

وفي تلك الفترة الحالكة من حياته، تحدث تيمور عن معجزاتٍ أخرى حصلت له، منها أنّه زار مرةً إحدى المدن فوجد فيها عابداً يُدعى «شمسُ الدين الفاخوري» ولأهلها فيه اعتقاد كبير، فقصدَهُ تيمور، وسأله أن يدعو له، فدعا له بأن تُقضى حوائجه، فكان يرجع غانماً من أي مكان يتَّجهُ إليه.

(١) عربشاه/ ٤.

(٢) تاريخ بخارى/ ٣٧٠ - ٣٧١.

وكان كثيراً ما يقولُ «جميعُ ما نلته من السّلطة، إنما كان بدعوة الشيخ الفاخوري، وهمةِ الشيخ زين الدين الخوافي، وما لقيت بركة إلّا بالسيّد بركة»[1].

وعند التقاء تيمور بأحد أعدائه «طَقْتَمش خان» أوشك على الهزيمة والفرار، فنزل السيد بركة وأخذ بكف من الحصباء، ورمى بها في وجوه العدو، وصاح «يا غي قاجدي» وصرخ بها تيمور وجنوده، فانتصروا، ونحن نوردها بدون تعليق[2].

كما أورد «ابن عربشاه» أنّ تيمور، اجتمع بأحد الشطار، ويدعى محمد السر بدار، وطلب إليه أن يدله على الطريقة «ويعبر به من المجاز إلى الحقيقة»، فدَلَّهُ هذا على الخواجا «علي بن المؤيّد الطوسي»، الذي زعم أنه قطب الممالك، وأصبح الطوسي من أقرب الناس إلى تيمور، وكان شيعياً، يضرب السّكّة باسم الأئمة، ويخطب بأسمائهم، وأصبح صاحب الكلمة النافذة في بلاط تيمور.

وهكذا أصبح تيمور مهيّأً للقيام بدوره على مسرح السياسة.

ولقد لفتت شجاعته في تلك الفترة، أنظار غريمه، «تغلق تيمور» فقرّبهُ ابنُه «إلياس خوجه» حاكم سَمَرْقَنْد، واتخذه وزيراً، إلا أنّ تيمور لم يُطق حياة التابع، ففرّ من سمرقند، والتحق بحليفه الأمير حُسين، الذي زوّجَه أخته.

وأخيراً التقى الأمير حسين وتيمور في المعركة الفاصلة التي قرّرتْ مصيره، مع عدوه «إلياس خوجه» سنة ٧٦٥ هـ - ١٣٦٣ م، عند الضفَّة

---

(١) الخوافي هو محمد بن علي الخوافي الهروي الحنفي ولد سنة ٧٥٧ هـ. أما الآخر، فهو زين الدين بركة، ويقال إن أصله من الحجاز أو مصر.

(٢) عربشاه/٧، وإنباء الغمر (طبعة مصر) ١/ ٢٠ حيث وردت القصة كاملة.

اليسرى لنهر جيحون، فانتصر تيمور وحليفه انتصاراً كاملاً، ودخل سمرقند، وعادت إليه زوجه، بعد أن طرد «الجغتاي» نهائياً من بلاد ما وراء النهر، وكان في مقدوره الاستيلاء على عرش سمرقند، لكنه وضع أحد الجغتاي وهو «صَرَغتمش» في صورة السّلطان، حتى لا يثير أحداً ضدَّه، لأن صرغتمش كان من ذريَّة جنكيزخان، ولا يقدر أحد أن يتخطاهم، وكان حاله مع تيمور، كحال الخليفة العباسي في بغداد، زمن ضعف الخلافة، وسيطرة الأتراك والفرس.

وبقي تيمُور في «قرشي» واسمها الآخر «نَسَفْ»، كما بقي صديقه حُسين، في «سراي» على الضفَّة الأخرى لجيحون، ثم اختلفا واشتبكا في معارك طاحنةٍ، انتهت بهزيمة حُسين وأسره ومحاكمته أمام مجلس من العشائر، فحكم بإعدامه، ولما طلب الرأفة، خاف تيمور من عطف المجلس عليه، فدبَّر عملية لاختطافه من سجنه، وأعدمه مع أربعة من أولاده، وتزوَّجَ نساءه الأربع.

وقد أطلق مؤرخو تيمور، صفات سيئة على الأمير حُسين، ولكنه كان خيراً من تيمور، وأكثر عمقاً في فهم الإسلام وتطبيقه.

لقد كان حسين يقاتل المغول الوثنيين انطلاقاً من دوافع دينية إسلامية، ولذلك فإنه كثيراً ما تناسىٰ خلافاته مع تيمُور واتحد معه ضدَّ المغول، وكان يرفض الاستعانَة بالوثنيين لقتال المسلمين، بعكس تيمور.

لقد كان السّلطان حسين، وقومه «التاجيك» (أحد فروع المغول أفضل فهماً للإسلام من تيمور والجغتائيين[1].

---

(١) لمزيد من التفصيلات عن نشأة تيمور وحروبه، وعن السلطان حسين، انظر الدراسة القيمة التي أعدها الدكتور مظهر شهاب عن تيمورلنك، في الفصل الخاصّ بنشأته.

وبعد إزاحة السُّلطان حُسين، دعا تَيمور إلى اجتماعٍ عام، لانتخاب أمير لبلاد ما وراء النهر، وترأس المؤتمر أحد رجال الدين الذي يدعى «أبو البركات»، وقد زعم أنه بالاتفاق مع أشراف مكة والمدينة، يُعلن تنصيب تيمور أميراً على البلاد، أو كما سماه «نائباً للخليفة في منطقة توران»، ثمّ أُجريت القرعة، ففاز تيمور، وألبس التاج الملكي، حسب العادات التركية القديمة، وجُدِّدت البيعة للباديشاه «صَرغتمش»، وكان ذلك يوم الأربعاء ١٢ رمضان سنة ٧٧١ هـ - ١٦ أيار سنة ١٣٧٠ م، وذكره خطيب العيد «بأنه السّلطان العادل، والباديشاه الشهير، والأمير المجيد» وشهدت بلاده احتفالات كبرى بهذه المناسبة.

ومنذ ذلك التاريخ، استقرت قدمه في الحكم، وأصبح رجلاً له شأن، وبدأ نجمه يلمع، وأخباره تنتشر.

٥ - توسُّعُه:

وعلى الرغم من ذلك، فإن حكمه الحقيقي، لم يبدأ إلا بعد فتحه «جِتّه، وخُوارزْم»، وقد خاض في سبيل ذلك حرباً طاحنة استمرّت عشر سنوات ونيفاً، وانتهت سنة ٧٨٣ هـ - ١٣٨٠ م.

وفي أثناء تلك الحروب اشتبك مع أمير القفجاق «طقتمش خان» في حروب مريرة، انتهت بانتصار تيمور، وإن كان انتصاره غير حاسم.

ثم التفت بعد ذلك إلى بلاد فارس، فبدأ بخراسان ودانت له، ثم فتح جرجان ومازندران (طبرستان) ثم سجستان، وأصبح ملوك هذه الأقاليم تابعين له، وذلك بعد أن نفذ أكبر مجزرة ضد سجستان، على الرغم من الأمان الذي منحه لأهلها، ومن ثم فقد أصبح أسلوبه هذا: «الغدْر»، يتكرر في كل مكان حتى أصبح من صفاته اللازمة[1].

(١) الموسوعة ٦/١٦٠، وإنباء الغمر (طبعة مصر، وهي الطبعة التي اعتمدنا عليها حتى آخر الكتاب) ١/١٩.

وفي سنة ٧٨٨ هـ ١٣٨٦ م اتجه إلى إيران والعراق وأذربيجان، وهزم السلطان «أحمد[1] جلائر»، وأقام في تبريز، وكرر فيها ممارسة هوايته المفضلة في إقامة برج من الجماجم البشرية، «رعاية لحرمته»، فأقام في تبريز أبراجاً كثيرة، بعدما قتل سبعين ألفاً من أهلها، وكان شاه شجاع وشاه منصور من أشد الأمراء الذين قاوموه في إيران.

وفي العام ٧٩٥ هـ ١٣٩٢ م، بدأ ما يعرف باسم «حرب السنين الخمس» حيث قتل زنادقة إقليم الخزر، وقضى على البيت المظفري في فارس، وقاد حملة الجزيرة، ففر أحمد جلائر، حاكم العراق وفارس، إلى السلطان برقوق في مصر.

ثم توجه تيمور إلى الهند في رجب سنة ٨٠٠ هـ نيسان سنة ١٣٩٨ م واستولى على دهلي، وقتل ثمانين ألفاً من الهنود، ثم ارتد نحو الغرب، وأعاد احتلال بغداد، ثم توجه إلى الجزيرة الشامية، وبدأ تحركه الكبير نحو الشام، فسيطر على سيواس وماردين وبهسنا ومَلَطية، وقلعة الروم وعيْن تابْ وحلَب وحماة وحمص وأخيراً دمشق، ثم عاد إلى حلب فبغداد، واتجه منها إلى آسيا الصغرى، حيث التقى مع السلطان العثماني بايزيد، في معركة أنقرة الفاصلة في ١٩ ذي الحجة سنة ٨٠٤ هـ - ٢١ تموز سنة ١٤٠٢ م، فانتصر عليه، وأسَره، وبقي في أسره حتى مات في شعبان سنة ٨٠٥ هـ - آذار سنة ١٤٠٣ م بعد أن دُمِّرت بلاده.

(١) أسرة جلائر، أو جلاير، أسرة مغولية أقامت سلالة حاكمةً في العراق وفارس بزعامة الشيخ أويس والد أحمد، وقد لعب أحمد هذا دوراً بارزاً في تحرك تيمور نحو الشام. والتجأ إلى مصر، ثم عاد إلى بغداد، فطرد منها إلى أن قتل سنة ٨١٣ هـ - ١٤١٠ م. انظر الموسوعة ٧/٧٠.

وقد قام تيمور بعد ذلك، بغزو الصين سنة ٨٠٧ هـ ـ سنة ١٤٠٤ م فجابهته الأعاصير والثلوج.

وعندما وصل إلى «أوترا» لتمضية فصل الشتاء مرض، وكان إلى جانبه زوجه «سارى هانم» والعلماء والفقهاء يتلون القرآن الكريم، ولما أحسّ بدنو أجله جمع قادته وقال لهم:

«عليكم بالجيش فحافظوا عليه، ولا تخاصموا، وسيروا نحو الصين ولا تتراجعوا» ثم عيّن «بير محمد» حفيده، ليكون الأمير من بعده... وبايعه الأمراء والجنود، ثم مات بعدها بدقائق.

وكان عنده آنذاك حفيدُه السّلطان خليل بن ميرانشاه، والسلطان حسين، ابن أخته، فحمل خليل جثمان جده، وعاد به إلى سمرقند، فخرج الناس للقائه، وهم يلبسون المسوح ويبكون، وأدخل جثمانه في تابوت من الأبنوس، ودفنوه على حفيده محمد سلطان بمدرسته، وأقيم عليه العزاء، وقُرئت الختمات، وفُرقت الصدقات، ونُشرت الأقمشة على قبره، وعُلّقت أمتعته على الجدران، ومعها قناديل الذهب والفضة ومن جملتها قنديل زنته عشرة أرطال بالشامي.

ثم نقلت رفاته إلى تابوت من فولاذ، وصارت تحمل إليه النذور، ويقصد قبره للتبرك والزيارة، ويأتي من له حاجة فيدعو عنده، وإذا مرّ على القبر راكب ترجّل إعظاماً له[1]. وكان دفنه في الضريح الفخم الذي أعدّه لشيخه المحبوب «السيّد بركة»، فرقدا معاً في البناء الذي يُعرف اليوم باسم «تربتي تيمور»[2].

٦ ـ عَائلـةُ تيمـور:

١ ـ كانت أولى أزواجه «أولجايَ موركان آغا»، وهي تمتُّ بنسبٍ إلى

(١) تيمورلنك/١٦٣، والنجوم الزاهرة ١٣/١٦٠.
(٢) تاريخ بخارى/٤٠٠.

قبيلة جلائر، وربما كان قبلها نساء أخريات في حياة تيمور، لكنها أول من عرفت منهنّ.

٢ ـ سَراي ملك هانم: أرملة عدوه السّلطان حُسين، وهي من نسل الحكام الجغتائيين «الشرعيين» لما وراء النهر.

٣ ـ ألُوس آغابنت بيان سلدوز: أرملة السلطان حسين الثانية.

٤ ـ إسْلام آغابنت خضر: أرملة السلطان حسين الثالثة.

٥ ـ طغى تركان خاتون: أرملة السلطان حسين الرابعة.

٦ ـ دلشاد آغا: وهي ابنة عدوه قمر الدين، وتدعى الملكة الكبرى، وقد توفيتْ سنة ٧٨٥ هـ ـ ١٣٨٣ م.

٧ ـ تومان آغابنت موسى جلائر، كانت في الحادية عشرة عندما تزوجها، وكان هو وقتها في الخمسينات.

٨ ـ جلبان آغا: «نجمة الصَّباح»، وقد قتلها لرواية بلغته عنها، ثم تبينتْ براءتها بعد أن سبق السّيف العذل.

٩ ـ تكل خانم:[1] تزوَّجها سنة ٨٠٠ هـ، وتُلقب بالملكةِ الصغرى وتدعى أحياناً «كشك خانم».

١٠ ـ بيجا خاتون: وهي أميرةٌ صينيَّةٌ.

ومن أبرز من بقي منهنّ بعده وفاته: سراي ملك خانم وتومان آغا، وتكل خانم.

وقد اقترن ببعض هؤلاء النّسْوة، لأسباب سياسية، كما هو الحال مع نساء السّلطان، وكان له بالإضافة إلى هؤلاء عدد كبير من الجواري، يفقن حد الإحصاء.

ولم يكن بين أزواجه جميعاً، امرأةٌ فارسيّة، لأن الأتراك، يتهمون

(١) أورد ـ فامبري ـ في تاريخ بخارى، الاسم هكذا «توكل خانيم» وقال إن معناه زوجة الخان، وأن بيكيم معناها زوجة البيك وقد حرفت إلى «بيجوم»/٣٩٤.

الفرس بالجبن، وينظرون إليهم نظرة ازدراء واحتقار.

ويقول «ابن عربشاه»: إن تيمورلنك، كان يستعملُ المعاجين لكي يستطيع «الإلمام» بكل هؤلاء النّسوة والجواري...

أما أولاده فخمسةٌ، هم:

١ ـ غياثُ الدّين جهانكير المتوفى سنة ٧٧٩ هـ.

٢ ـ معزّ الدين عمر شيخ المتوفى سنة ٧٩٧ هـ.

٣ ـ ميرانشاه، توفى سنة ٨١١ هـ.

٤ ـ شاه رخ، وهو آخر أولاده وفاة، إذ أنّه توفي سنة ٨٥١ هـ.

٥ ـ (سُلطانة بخت)، وقد تزوَّجها «سُليمان شاه»[١].

(١) انظر تاريخ بخارى/٣٩٤، والموسوعة الإسلامية ٦/١٦٢.

الفصل الثاني

تيمُورلنك الإنسَان

١ ـ صفاته العامّة.

٢ ـ طباعه وهواياته.

٣ ـ مذهبُه الدينيّ.

٤ ـ آراءُ المؤرخين فيه.

١ ـ صفاتُه العامَّةُ:

ـ كان طويلَ القامة، كبير الجبهةِ، عظيم الهامَة، شديد القوة، أبيض اللون، مشرباً بحمرةٍ، عريض الأكتاف، غليظ الأصَابع، مسترسل اللحية، أشلّ اليد، أعرج الرجل اليمنى، تتوقد عيناه، جَهْوريُّ الصوت، لا يَهاب الموت، أشرف على الثمانين، وهو مُتمتع بكامل حواسّه وقوته، وكان يصلّي قائماً رغم إصابته.

هذا ما وصفه به ابن تغري بردى، وابن عربشاه.

وقد أضاف مؤلف تاريخ بخارى، صفات أخرى فقال: كان منتصبَ القامة حتى لا يلحظ الناظر إليه أثر العرج فيه، وكان صوته يعلو وهو في القتال، وأصبح يُعاني في أواخر أيامه من ضعف شديد بالبصر، وكانت ملامحه مغولية خالصة، لأن الجنس التركي، لم يمتزج بالعناصر الإيرانية زمن تيمور، وقد فضّل الأتراكُ الاختلاط بأولاد عمهم المغول دون التاجيك (أي الفرس) لاشتهارهم بالجبن، كما أسلفت.

ويقول «فامبري»: لقد أخطأ كاتب سيرة تيمور عندما أضفى عليه سمات الجمال الإيراني، حين صوَّره كبطل، والواقع أنه لم يكن له من صفات الإيرانيين إلاّ ثيابه[1].

---

(١) تاريخ بخارى/٤٠٣، ونعتقد أن هذا هو أدق وصف لتيمور لأن المؤلف نقل هذه =

وذُكر في الموسوعة الإسلامية، أنه كان معتدل القامة، والخلاف برأينا يعود إلى الفرق في تحديد الطّول والقصر، بين مؤرخينا ومؤرخي الغرب.

٢ ـ طباعة وهواياته وثقافته:

أما عن طباعه، فقد أجمع المؤرخون على أنه كان يكره المزاح واللّهْوَ والكذب، وكان نقش خاتمه «راستي روستي» أي «الصّدق منجاة».

وكان له فراسَة عجيبة وسَعد عظيمٌ وحظ زائد في رعيته، وعزم ثابت وفهمٌ دقيق، سَريع الإدراك، مُتيقّظٌ، يفهم الرمز والإشارة، ولا يخفى عليه تلبيس، لا يتراجع عن شيء أقدم عليه، ولا يأسىٰ على ما فات، ولا يفرح بما هو آت، ولا يجري في مجلسه شيء من الكلام الفاحش، أو سفك الدماء، أو الغيبة والنميمة، يُحبّ الشّجعان والأبطال، أفكارهُ مصيبة وعزمه لا يلين، يُفرّق بين الحقّ والباطل بسرعة، وكان يبدأ كتاباته بعبارة:

«من تنكري قولي تيمور»

أي: يقول عبدالله تيمور، وكان يقرب العلماءَ على من سواهم، ويغرم بأرباب الصناعات والفنون، ويقرب المنجّمين والأطباء، ويأخذ بأقوالهم.

وكان ماهراً في لعب الشطرنج، وكان له شطرنج خاص، زاد فيه صفاً فأصبح ١١×١٠، وزاد في هذا الصف جَمَلين وزرافتين ودبابتين وفرسَاً وأشياء أخرىٰ.

= الصفات من كتاب الرحالة «كلافيجو» الذي زار سمرقند. واجتمع بتيمور، قُبيل وفاته.

وكان يعجبه الصوت الحسن، وسماع القصص التّاريخيّة والدينية ليلاً نهاراً. حتى صار يردّ على القارىء إذا أخطأ في شيء، وكانت الفارسية هي اللغة التي يُقرأ له بها[١].

وكان أمياً لا يحسن القراءة والكتابة، ومن هنا يتضح أن ما دونّه المذكرات، عن قراءته لكتب الحكمة، لا أصل له، ومن اللغات التي يجيدها الفارسية والتركية والمغولية، ولم يكن يفقه شيئاً من العربية، إلا ما يصلى به من القرآن الكريم.

وقد يُخَيَّلُ لبعضهم أنه كان على درجةٍ من الثقافة، لكن ابن خلدون، على الرغم من محاباته لتيمورلنك، قال: إن الناس ينسبونه إلى المعرفة والفضل، وهو ليس كذلك.

وسنلقي نظرة أوسع على فكره وثقافته عند الحديث عن اجتماعه بعلماء حلب ودمشق، حتى لا نستبق الحوادث.

ويبدو أنه كان يميل في مجالسه الخاصّة إلى المزاح أحياناً، فقد رُوي أنه كان يوماً في الحمّام، ومعه أحمد الكرماني الشاعر، الذي ألف سيرته نظماً، «تيمورنامة». وبعض أصحاب المجون، وتطرق الحديث بينهم إلى قيم الرجال.

وهنا سأل تيمورُ الشاعرَ الكرماني، عما عساه يدفع ثمناً له، إذا عرض ـ أي تيمور ـ للبيع.

فأجاب الكرماني، بأنه لا يشتريه بأكثر من أربعين مليماً، فاحتجّ عليه تيمور، وقال: إن هذا المبلغ لا يساوي ثمن لافتة البيع

---

(١) الدرر الكامنة ٤٩/٣، والنجوم الزاهرة، ١٦٠/١٣، وتاريخ بخارى/٤٠٩ وعربشاه/٣١٤، والوصف مما كتبه هؤلاء جميعاً.

وحدها، فأجابه الكرماني، بأن هذا ما عناه تماماً، لأن تيمور نفسه لا يُساوي شيئاً[1].

ويروي ابن عربشاه عن الحافظ الخوارزمي قوله: «لازمتُ تيمور في إحدى غزاوته في ليله ونهاره، فنازلتْ عساكره حصناً، وضرب تيمور خيمته في مكان عال، ليُشرف على القتال، فحضرتُ ـ يعني الخوارزميّ ـ عنده مرةً، ومعي اثنان آخران، بسبب حمى أصابتْه، فأراد أن يطّلع على سير المعركة، وكان داخل الخيمة فقال: احملوني إلى باب الخيمة، فدخل الرجلان تحت إبطه، وأوقفاه بالباب، وأنا بين يديه، فجعل يشاهد القتال، ثم أراد أن يأمرهم بشيء، فناداني، فأسرعت إليه، ودخلت تحت عضده، فأرسل أحد الرجلين إلى عسكره، يأمرهم بما رأى، فلم تنجح سفارته، فطلب منا أن نضعه على الأرض، فسقط كأنه رِمَّة بالية، أو قطعة لحم، ثم أرسل ذلك الرجل الآخر إليهم، فبقينا وحدنا، فقال لي:

ـ **يا مولانا محمود، انظر إلى ضعف بنيتي، وقلة حيلتي، لا يد لي تقبض، ولا رجل تمشي، لو رماني الناس هلكت، ولو تركوني ارتبكت، لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضرّاً، ولا أجلب خيراً، ثم تأمَّلْ كيف سخرَ الله تعالى لي العباد، وملأ رعبي الخافقين، وأذل لي الملوك والجبابرة، فهل هذه الأفعال إلّا أفعاله؟**»[2].

وقد كان تَيمور سريع الغضب والثورة إذا ما خالف أحد أوامره، أو تحدّاه، ومن أطاعه من المرة الأولى أمِن، ومن خالفه هلك، وهذه الصفات هي التي كانت تدفعه إلى البطش بأصدقائه وأعدائه على حد سواء.

(١) تاريخ بخارى/٤٣١.

(٢) عربشاه/٣٤٠ ـ ٣٤٢.

ولم يكن قط من النوع المتسامح الذي يعفو وينسى ويغفر ويقبل العذر أبداً، بل من النوع الحاقد الذي لا ينسى أبداً ولا يغفر ولا يقبل العذر، ولكنّه يُموِّهُ ويتغابى، حتى تسنح له الفرصَة، ثم يبطش بطش الجبارين.

٣ ـ مذهبُهُ الدّينيُّ:

تشير ظواهر الأمور كلها، إلى أنّ تيمورلنْك كان مُسلماً، يُصلّي قائماً، ويصُوم، ويستعينُ بالله، ويحث الناس على تطبيق الشريعة، ويقرب العلماء والفقهاء، ويعقد المناظرات العلميّة والفقهية... كما كان له إمام خاص، وقارىء وفقيه ومفسّر...

وسنقدم فيما يلي أوضح صورة لطبيعة الدين عند تيمورلنك، بعيداً عن نفاق المعجبين به، وبغض الكارهين له.

والحديث عن الإسلام عند تيمورلنك، يجرّنا إلى الحديث عن «الياسّة»، لأنها كانت تحلّ عنده في المقام الأول، من الناحية العملية.

والياسّة ـ وبعضهم يقولُ: إن «السياسة» مشتقة منها ـ كلمةٌ تعني مجموعة القوانين التي أصْدرها جنكيز خان، عندما وحّد المغول، أو التتار، تحت لوائه، لتنظيم العلاقات بين أفراد الشعب المغولي، وصارت هذه الياسّة عند المغول، كتاباً مقدساً، يحتكمون إليه في كل ما يعرض لهم من أمور.

ومن أهم بنودها:

ـ الإيمانُ بوحدانيَّة اللّهِ، خالقِ كل شيء، والقادر على كل شيء، والمحيي والمميت.

- لجميع الناس حرية العبادة المطلقة، والواجب احترام هذه الحرية والدفاع عنها.
- إذا ارتكب أحد، واحدة من الجرائم التالية، يعاقب بالقتل:
- القتلُ.
- الزنى.
- إذا أعان أحد الخصمين على الآخر.
- إذا خسر ثلاث مرات في التّجارة.
- إذا بال في الماء.
- إذا تخلّى عن مساعدة المحتاج.
- إذا آوى أسيراً هارباً.
- إذا ذبح ذبْحة المسلمين.

ويقول القلقشندي:

«إن حال التتر في الجملة إسقاط المؤن والكلف عن العلويين - يعني الشيعة - وعن الفقهاء والفقراء والزهاد والعباد والمؤذنين والأطباء وأرباب العلوم»(١).

ويقول «فامبري» وهو ممن يكتبون من وجهة النظر الأوربيّة: «إنّه على الرغم من غيرة تيمورلنك الإسلامية البالغة، فقد كان معجباً أشد الإعجاب بمجموعة قوانين جنكيز، وهي نتاج تورانيّ بارع كانت (كما يزعم المؤلف الإنكليزي) أصلح لأحوال الشعوب التركية - التترية من تلك القوانين الساميَّة الخالصة المستمدة من القرآن والسنة!!!».

ويضيف:

«من هنا نستطيع أن ندرك كيف حرص حرصاً بالغاً على التمسّك

(١) صبح الأعشى ٣١١/٤، خطط القاهرة للمقريزي ٢٢١/٢.

بالياسّة تمسكاً شديداً، وأصرّ عليها، على الرغم من معارضته شيوخ المسلمين في ذلك».

ويزعم هذا الإنكليزي، أن التشريعات الإسلامية تصلح لحكومة دينية أكثر مما تصلح لحكومة عسكرية، ولا مجال لها في الغالب، مع الياسّة(١)!!!.

ونحن لا نريد الردّ، لأن هذا ليس موضوعنا الآن، وإنما نذكر وجهات النظر عند الجميع، للوصول إلى الحقيقة الخالصة على قدر الإمكان.

ويتبع الياسَّة، ما يُسمّى بـ«التوزوكات» أي التنظيمات وقواعد الحكم، التي تنسب إلى تيمورلنك، وتقع في اثنتي عشرة مادة، توضّح للحاكم قواعد الحكم والتعامل مع الناس، وهي توجيهية وإرشادية، وليست تشريعية كالياسّة.

وهذه التوزوكات، والياسَّة، كانت هي الأساس الأول في الحكم عند تيمورلنْك، وقوانينها كانت تحتل المرتبة الأولى كما أسلفنا، عند ملوك المغول المسلمين كلهم، وفيهم غازان ومن جاء قبله وبعده.

بل إن المماليكَ في بلاد الشام ومصر، كانوا يحتكمون في شؤونهم الداخلية العسكرية أحياناً إلى الياسَّة هذه، ولكن في نطاق ضيق وبما لا يتعارض مع الشرع، إذ كان خضوع المماليك لسُلطان الشرع الإسلاميّ كاملاً ومطلقاً، ولا يحتمل الأخذ والردّ، وقصّةُ الشيخ عزّ الدين بن عبد السلام، مع الملك الظاهر ومماليكه معروفة(٢).

(١) تاريخ بُخارى /٣٧٨.

(٢) خلاصة القصة، أو بالأحرى، إحدى قصصه مع الملك الظاهر، أن العزّ لما حضر بيعة الملك الظاهر، قال له: =

أما تيمورلنك، فلم يكن عنده أصلاً رجال دين من طراز العز بن عبد السلام يراجعونه في أحكامه.

لقد كان الإسلام عند تيمُورلنك شيئاً مظهرياً من متمّمات الحكم، ولم تكن لأحكام الإسلام، تلك القوة الخارقة التي لا يقوم الدين بغيرها، أي قوة الرضوخ التام للأحكام.

ولذلك عمد إلى تعيين قاضٍ خاصّ لجيشه، يحكم بالياسّة، وقاض مدني، يحكم بالشَّريعة الإسلامية.

أما منشأ التنازع بين الشريعة والياسَّة، فمردّهُ إلى أن مجتمع ما وراء النهر، كان منقسماً إلى فئتين:

ـ أولاهما فئة الأتراك الجغتائيين الحاكمين، وهذه هي الفئة العليا الحاكمة، والمسيطرة فعلياً على مقدرات البلاد السياسية، وبالطبع فقد كان تيمورلنك منها، وسبب تعالي هذه الفئة، أنّ أفرادها يَعدّون أنفسهم خلفاء جنكيز خان، وكانوا حديثي عهدٍ بالإسلام، ولذلك بقي تأثيره عليهم سطحياً، بل إن غالبيتهم لم يكونوا يفهمون من الإسلام ما تصح به عقيدتهم ومعاملاتهم، ولذلك فقد أنزلوا بالمسلمين، على اختلاف فئاتهم، الدمار والخراب والويلات، وتجاوزوا، في ذلك هولاكو وجنكيز خان، ولذلك فإن أحداً من مؤرخي العرب المسلمين، لم يقتنع بإسلامهم، وعرفوا عند المؤرخين العرب بأسمائهم الحقيقية، مثل: اللّنكيّة، أو التمرية، أو المغول، أو التتار، كما سنرى...

= يا ركن الدين أنا أعرفك مملوك البندقدار، فما بايعه حتى جاء من شهد له بالخروج عن ملك البندقدار، إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب، الذي أعتقه. كما أن الشيخ كان يتحدى السلطان الظاهر ووزراءه وأمراءه، ويرغمهم على الامتثال لأمر الشرع الشريف».

انظر: فوات الوفيات ٢/٣٥٠ وغيره.

لقد كان «الجغتائيون» يزعمون أنهم جنودٌ مسلمون، في الوقت الذي كانوا فيه شديدي التمسك بتقاليد جنكيز خان، سواء من حيث الزيّ أو التشكيلات العسكريّة، وكانوا يطلقون على الياسة اسم «تورا»، وهذا الاسم ربما كان تحريفاً لكلمة «توراة» العبرية، أو «تورو» التركية.

وفي سنة ٧٧٤ هـ ـ ١٢٧٢ م قيل لسفير تيمور في خوارزم: «إنّ بلادكم بلاد حرب، وإن الجهاد ضدكم فرض على المسلمين».

وكان من الفروق الظاهرة التي تميز تيمور وأتباعه إرسال الشَّعر، وعدم قصّه.

ولذلك قال «ابن عربشاه» وكان أعرف الناس بآل تيمور وبلاده: «لقد كان معتقداً لقواعد جنكيز خان، ومقدماً لها على قواعد الإسلام، ومن هذه الجهة أفتى مولانا علاء الدين البخَاري، ومولانا حافظ الدين البزازي وغيرهما، بكفر تيمُور، وكفر من يقدم على الإسلام القواعد الجنكيز خانية، ولأسباب أخرى أيضاً، مع أن الإسلام ظاهر في بلاده»[1].

هذا عن الفئة الأولى، أما الفئة الثانيةَ في مجتمع ما وراء النهر، فكانت فئة التّاجيك، وهم من الفرس المحكومين المسلمين، وكان منهم القضاة والعلماء والفقهاء، وكان لتيمور حاشية منهم، لكنهم كانوا لتزيين مجالسه فحسب، لأنه لم يكن يحبهم، أو يحترمهم في أعماق نفسه، ولذلك لم يتزوج منهم، علماً بأنهم كانوا المسلمين الحقيقيين في دولته، وكان منهم إمامه وقارئه ومفتيه...

لقد كان استخدام تيمورلنك للإسلام، استخداماً سياسياً، لأنه

(١) عربشاه/٣٢٠، والضوء اللامع ٣/٤٩.

كان يجني من وراء ذلك خدماتٍ جليلة، كما كان الحال مع «غازان» أمبراطور المغول من قبل.

ولذلك، فقد كان رجال الدين الذين يحيطون به من طراز رجال الدين في العصر العثماني، يغلب النفاق على تصرفاتهم لخوفهم منه، وكانت مهمتهم الحقيقية إيجاد الفتاوى المناسبة لأعمال سيدهم، فضللوا بذلك عامة الناس، وجعلوهم يقدسون تيمورلنك ويعتقدون فيه الكرامة والنبوة، لو أراد، حتى وهو يذبح المسلمين، ويقيم من رؤوسهم الأبراج والأهرامات...

لقد كان رجال الدين عند تيمورلنك، ومن شابهه، يقومون عن قصد أو بدون قصد، بعملية التضليل الرسميّ للمحكومين، سواء بسكوتهم عن تجاوزاته الشرعية، أو عندما يُلفقون له الفتاوى التي تبرر تصرفاته المخالفة للدين، هذا إذا لم يُمجّدوه، ويتخذوا منه موقف النفاق الكامل، وقد رأينا بعض ذلك عند لقائه بالمؤرخ العربي ابن خلدون، وسنرى المزيد.

لقد كان سلاطين المماليك، على الرغم من جهل بعضهم العربية، أعمق إسلاماً، وأشدّ حرصاً على تطبيق أحكام الشريعة على أنفسهم قبل غيرهم، في حين كان تيمورلنك يُقرّب رجال الدين ليزيّن بهم مجالسه، ويدخل في جدل عقيم مع علماء البلاد التي يفتحها، ليبرر تصرفاته، وينسبها إلى أصل شرعيّ، وهو أنه إنما جاء لإنقاذ الإسلام والمسلمين من حكامهم الخارجين عن الدين، ولذلك كان يُحيط نفسه بهالة من القدسية، ويصور نفسه بأنه الفارس الشهم المسلم، ولذلك كان يلجأ إلىٰ ادعاءات غريبة:

- منها أنه يستحقُّ الشفاعةَ لأنه تسبب في نيل الشهادة لمئات

الألوف من المسلمين، وهذا إما أن يكون غباءً منه، أو استخفافاً بالدين...

ومنها أن الله تعالى، والخضر يقاتلان معه.

ومنها أنه إنما جاء إلى الشام ليثأر للحسين بن علي... وهذه الادعاءات أتفه من أن تناقش.

ولذلك فإن تعاظم تيمورْلنك، أو أيّ طاغية مسلم آخر، إنما يعني أن رجال الدين والعلماء في بلده ليسوا أكثر من موظفين مُنافقين، وهذا ما ينطبق على غازان، وخدابُنْده، وتيمورلنك، والسّلطان العثماني سليم، ومن هم على شاكلتهم.

وسنورد فيما يلي نماذج عن «تديّن تيمورلنْك» ذلك التدين الذي خدع به الكثير من المسلمين في بلده...

يقول في المذكرات: «واعتبر الخضوع لله وطاعة رسوله وتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية واحترام آل البيت أمراً ضرورياً...».

وجاء في إحدىٰ نسخ المذكّرات: «إن هدف تيمورلنك تقوية الدين والملّة المحمدية، وترويج مذهب أهل السنة والجماعة، والقضاء على المذاهب الباطلة».

وكان إذا واجهته صعوبة، أوكل أمره إلى الله، وإذا مرض دعا الله، وكان يحمل معه نسخة من القرآن الكريم، للتبرك به، ويتلو الآيات الكريمة، قبل أن يُباشِر القتال، وكان لا يُشاهد إلا والسبّحةُ في يده، ولا يفتأ في مجلسه، يكثر من ذكر الله والاستغفار، وقد وصفه مؤرخه يزدي بأنه: عميق الإيمان، حريص على أداء واجباته الدينية، يقوم الليل، ويحضر صلاة العيد، ويدفع الزكاة، وكان أول ما فعله يوم دخل دمشق، أنْ صلّى في الجامع الأموي...[1].

(١) تيمورلنك ٤٠٢ و ٤٧٢.

كل هذه الشواهد وغيرها، توحي بأنّه كان مسلماً ومتديناً. فهل كان تيمور كذلك؟.

وثم مسألة أخرى اختلف فيها المؤرخون، بل حاروا، وهي هل كان سنياً أم شيعياً؟.

فالذين يذهبون إلى أنه كان سنّياً يستشهدون على رأيهم بما يلي:

١ ـ عندما استولى على كيلان، أو جيلان، سنة ٧٨٢ هـ ـ ١٣٨٠ م، وكان يحكمها الشيعة، أخذ يحض حاكمها على اتباع المذهب السني، مذهب الجماعة.

٢ ـ وعندما أخمد الثورة الشيعية في «سَبْزَاوَر» سنة ٧٨٥ هـ ـ ١٣٨٣ م، انتقم من أهلها انتقاماً رهيباً، فأمر بخلط ألفين منهم بالآجر والطين، وبنى منهم برجاً...

٣ ـ وفي قزوين، قاتل إحدى الجماعات الشيعية، وقتل زعماءهما، وطلب إلى من بقي منهم نَبْذ عقائدهم الفاسدة، والعودة إلى مذهب السنة والجماعة، وكانت هذه الفئة، تسمى بـ «الحروفية» ومؤسسها فضل الله بن أبي محمد التبريزي، الذي زعم أن الحروف هي عين الآدميين، فأمر تيمورلنك ابنه بقتل التبريزي وإحراقه، وقد تم ذلك سنة ٨٠٤ هـ ـ ١٤٠٢ م[1].

٤ ـ وعندما راسل السلطان العثماني بايزيد، ادعى أنه من أهل السنة والجماعة.

٥ ـ وكان قاضيه الذي يرافقه دائماً، عبد الجبار، سنّياً حنفياً.

٦ ـ كما أنه سمى أحد أولاده «عمر شيخ» وسمى حفيديه من ابنه ميرانشاه بـ «أبي بكر، وعمر».

(١) إنباء الغمر ٢/٢١٩.

٧ ـ وعندما جاء إلى الشّام، نصر المذهب الحنفي على الشافعي، واستنكر أن يكون المحراب الكبير في الأموي للشافعية، وأسند إلى قاضي القضاة الحنفي خمس وظائف، وجعله فوْق الجميع.

٨ ـ وفي دمشق أيضاً، ادّعى رجل عنده، أنه ينتسب إلى عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، فقال له تيمور:

«لولا أني ظاهر العذر، لحملتك على عاتقي».

٩ ـ وعندما كان في دمشق بنى قبة على قبر أم حبيبة رضي الله عنها.

١٠ ـ وعندما كان على فراش الموت، أمر أولاده، بالعمل على نشر مذهب أهل السنة والجماعة، ومحاربة المذاهب الفاسدة.

١١ ـ وفي عهده، انتشر المذهب السني في بلاد ما وراء النهر.

١٢ ـ وأخيراً، ما قاله عنه ابن خلدون! بأن لا صحة لما ينسبه الناس إليه من «الرفض»، عندما كانوا يرون تفضيله لآل البيت.

وأما الذين يذهبون إلى أنه كان شيعياً متعصّباً، فيبنون رأيهم على أنه كان يحيط آل البيت بهالةٍ من الاحترام، وذلك لاعتقاده ـ كما بيّنا ـ بأنه ينتسبُ إلى عليّ بن أبي طالب، رضي الله عنه، وهو ما دُوّن على شاهدة قبره، عندما دخل «النور» في جدته آلاغوا، وأخبرها بأنه من سلالة علي رضي الله عنه.

وقد جزم عدد من مؤرخيه، من أمثال سمرقندي وميرخوند، بأنه كان شيعياً.

وجاء في المذكرات، أنه فتح القرآن الكريم ذات مرة، فقرأ الآية (إنما يريد الله ليُذهب عنكم الرجسَ أهل البيْتِ ويطهِّركم تطهيرا)[1].

(١) سورة الأحزاب/٣٣.

وقد فَسّرها تيمورلنك بأنه من آل البيت.

وقد سبق الحديث عن الياسّة التي كانت تجلّ آل البيت، وكان تيمورلنك يجلّها بدوره.

ثم إن مجادلاته مع علماء حلب ودمشق، واتهامهم بأنهم «نواصب» ـ أي يحبّون بني أمية ـ وانتقامه للحسين بن علي، واستعانته بطائفة من غلاة الشيعة في جيشه ـ الخراسانية ـ وتنكيله بأهل الشام كل ذلك جعله بنظر البعض: شيعياً.

وبعد ذلك، فهل كان سنياً أم شيعياً؟.

نحن نقول: إنّ حُب آل البيت شيء، والتشيعَ شيء آخر، إذ لا يوجد مسلم واحد يجرؤ على الحط من أهل البيت، أو يفضل مُعاوية على عليّ، أو يُقرُّ بمقتل الحسين، وتلك أمور لا تحتاج إلى دليل، فالجميع أصحاب رسول الله، وأهله، ولا يملك أحد مهما كان أن ينال منهم.

وفي مصر ـالسنيّةِـ يُعظِّمون أهل البيت تعظيماً كبيراً، فهم يحجُّون، إلى اليوم، إلى قبر أم هاشم ـ السيدة زينب ـ والحسين، والسيدة نفيسة، وغيرهم، ومع ذلك فلم يقل أحد إنّهم شيعةٌ، فهُم في ذلك مثل تيمورلنك تماماً لأن الجميع يُعظّمون أهل البيت بالمعنى الواسع، أي جميع أصحابه، وهذا هو الفرق بينهم وبين الشّيعة.

و «الياسّة» التي تعظم أهل البيت، واضعها وثني خالص: هو جنكيز خان.

كما أنّ تيمورلنك، لم يسم أحداً من أولاده بأسماء الشيعة، بل حصل العكس، كما رأينا.

والرأي الأقربُ للصَّواب، أنّ تيمُورلنك لم يكن سنياً ولا شيعياً،

لأنّ تصرفاته المتضاربة بين السنة والشيعة، تفسّر حقيقة تدينه، فالدين عنده وسيلة لا غاية، وسيلة تُسهّل له السيطرة على الشعوب، وتجعلُه يظهر بمظهر البطل الإسلامي المدافع عن الإسلام، وهذا ما يرضي ميوله تماماً، **إذ أنه ليس أجمل من أن يحارب الحاكم فكرةً ما، ويعمل على تدميرها بكل السبل، ثم يظهر وكأنه يحميها ويدافع عنها وسط تهليل الأغبياء الذين تنهار معتقداتهم فوق رؤوسهم علىٰ يديه.**

إن مسألةَ الانتماء لآل البيت، أو التمسّح بهم كانت طوال العصور وسيلةً يتذرع بها من أراد أن يُثبّت سلطانه، أو يعلن ثورته، أو ينزل بالمسلمين الويلات، كما فعل صاحب الزنج، والقرامطة، وغازان وتيمورلنك، وغيرهم.

لقد كان تيمورلنك، واحداً من هؤلاء، الذين يستغلّون المذاهب الدينية، بل والدين كله، لتحقيق أهدافهم، وهم يشعرون نحو الدين بكثير من اللامبالاة والفتور، ويفسرون أحكامه، بالطريقة التي تناسبهم.

وهذا يقودنا إلى المسألة الأخرى: هل كان تيمورلنك مُسْلماً حقاً؟.

يقول «الغزي»: إن الناس في أمره مختلفون، فمنهم من يزعم أنه مُصلح كبير، لم يقصد من غاراته على المسلمين إلاّ ردعهم، وردع حكامهم.

ثم يقول: «وقد جمعتْني باخرة كنت ركبتها إلى غزة، ببعض علماء الأتراك القاطنين في بخارىٰ، فقال لي:

«إن عدداً من علماء تركستان وخواصّهم، يعدون إيقاع تيمور بالبلاد الإسلامية جهاداً مقدساً، ويعتقدون فيه الولاية والكرامة،

ويترضّون عليه، كما يترضون على أنبياء الله وأصفيائه، وأن ما كان يصدر من جيوشه لم يكن بعلمِهِ»[1].

ومن جهة أخرىٰ، قال تيمور «لكلافيجو» الذي زاره في سمرقند في أخريات أيامه:

«ها هو السفير الذي أوفده إليَّ ابني ملك ملوك الفرنجة، حقاً إن هؤلاء الفرنجة أمة عظيمة، وإني لأود أن أبعث بتحياتي إلى ابني ملك إسبانيا»[2].

لقد وجَّه هذا الخطاب إلى ابنه، رغم علمه، بالمجازر التي كانت تنفذ ضد عرب الأندلس المسلمين في ذلك الوقت.

وعندما كان السُّلطان العثماني بايزيد يجني ثمار انتصاراته في أوروبا، وبروسَّة، ويستعد لحصَار القسطنطينية، انقض تيمور على سيواس، واجتاح أراضي العثمانيين، مما دعا بايزيد إلى فك الحصَار والعودة للقاء حامي الإسلام «تيمورلنْك».

إن هذه التصرفات وغيرها حيّرت المؤرخين فيه.

٤ ـ آراءُ المؤرخين في تيمورلنك:

ـ يقول «Grosset» «غروسيه»:

«إن الملحمة التيمورية ليست إلاّ ملحمة إكراه ومذابح، أساءت إلى الإنسانية إساءةً لا تغتفر، كما أنها بنقلها لمهرة الصّناع والعلماء إلى سمرقند، أفقرت بلادهم، وتراجعت صناعاتهم، لأن حروب تيمورلنك إنما كانت للسلب والنهب».

---

(١) نهر الذهب للغزي ٣/٢٠٦ ـ ٢٠٧، والرحلة كانت في مستهل هذا القرن، القرن العشرين.

(٢) تاريخ بخارى/٤٠٦.

ـ ويقول توينبي:

«لقد سببت حروبه إعياءً شديداً لشعبه وبلده وبددت ثرواتها، ولما استدار نحو الداخل العربيّ، والإيراني، ووجّه قواته إليها، وكانا معمورين بالحضارة الإسلامية، اندفع ليدمر كل شيء... ولقد عمل كل ما في وسعه للإساءة البالغة لهذه الحضارة والإسلام الذي يدين به، ويظهر ذلك بالموازنة بين ما آل إليه الحال في عصره، وبينما كان عليه الحال، في المرحلة التي سبقت ظهوره على مسرح الأحداث، لقد كان الإسلام والحضارة الإسلاميَّة خلال القرون الأربعة التي انتهت بظهوره، مُطّردي التقدم بين سكان قلب آسيا البداة، مما دفع بعض الباحثين إلى الاعتقاد بأن الدين الإسلامي سيصل في نهاية الأمر لأنْ يصبح دين الأكثرية السَّاحقة من سكان آسيا وأوروبّا الشرقية، ولقد توقف كل ذلك نتيجةً لأعمال تيمور الحربيّة التدميرية، التي أوقفت انتشار الإسلام وأفسحت المجال للعقائد الأخرى، كالبوذيّة واللاميّة أن تستغل ذلك، وتنتشر في وسط آسيا، كما حالت أعمال تيمور دون أن تُتم الحضارةُ الإسلامية عملية ترويض البدو وتمدينهم في قلب آسيا، حيث قام بهذه المهمة فيما بعد كل من الروس والصينيّين.

ولو أنه لم يدمّر إيران، لكان موقف ما وراء النهر من روسيا اليوم مختلفاً، فقد يبدو معقولاً في تلك الحال، أن يجد الاتحاد السوفيتي اليوم نفسه جزءاً من امبراطورية ذات طابع إيراني، تحكم فيها موسكو من سَمَرقند.

لقد انهارت أمبراطورية تيمور، لأن الروابط التي كانت تربطها في حياته، كانت واهية وشخصية»[1].

---

(١) عن آراء توينبي وغروسيه انظر: تيمورلنك/٤٨٩.

ويقول ابن خلدون، أقرب المؤرخين العرب إلى تيمور، من رسالة له إلى ملك المغرب:

«والقومُ في عدد لا يسعه الإحصاء، إنْ قدَّرتُ ألف ألف، ، فغير كثير، ولا نقول أنقص. . .

وهم في الغارة والنهب والفتك بأهل العمران آية عجب وهذا الملك ـ تمر ـ من زعماء الملوك وفراعنتهم والناس ينسبونه إلى العلم، والآخرون إلى اعتقاد الرفض، وآخرون إلى انتحال السّحر، وليس من ذلك كلّه في شيء، إنما هو شديد الفطنة والذكاء، كثير البحث واللجاج بما يعلم وبما لا يعلم، والملك للّه. . . »[١].

ـ ويقول بارتولد:

«يقول المتحمسون لتيمور: إن الانتصارات التي حققها جعلت له أعداء كثيرين يشوهون صورته، إن نشاطه في الإعمار لم يقلَّ عن نشاطه في التدمير لقد عاشت بلاده في عهده، عصرها الذهبي. . . »[٢].

ـ ويقول السَّاداتي:

«إن أعمال تيمُور الحربيَّة، لم تحل دون مواصلة الحضارة الإسلامية مهمتها التاريخية في آسيا فقد قامت دولة سلاطين المغول المسلمين في الهند على يد أحفاد تيمور، وسعى حكام هذه الدولة إلى نشر الإسلام والحضارة الإسلامية، على نطاق واسع لم يسبق له مثيل في العصور الإسلامية»[٣].

وخلاصَةُ القول: لقد تضاربت الآراء في تيمورلنك وهذا أمر اعتيادي عند جميع المشاهير، فهو بنظر بعضهم مسلم سني حسن

(١) لقاء ابن خلدون وتيمورلنك/٨٦.

(٢) تيمورلنك/٤٩٠.

(٣) تاريخ المسلمين في الهند، الساداتي، ج ٣ صفحة هـ.

الإسلام، وبنظر الآخرين شيعي يعادي السنة، وبنظر طائفة أخرى من المؤرخين خارج عن الدين أصلاً، ولا يمت إلى الإسلام بسبب، إلى آخر ما هنالك.

ونحن نقول:

إن الكوارث التي حلّت بالمسلمين على يد تيمورلنك، من الهند إلى الشّام على مدى أربعين عاماً، وإن آلاف الأبراج البشريّة التي أقامها من المسلمين، وإن تدميره لمدارس المسلمين ومساجدهم ومدنهم وقراهم تدميراً تاماً، إن كل ذلك وغيره، يجعلنا نرى أنه لو كان مسلماً، وكان الحكام المسْلمون على شاكلته، لانتهى الإسلام والمسلمون من وجه الأرض منذ عدة قرون، لقد كان تيمورلنك واحداً من مُدّعي الإسلام، الذين أذلّ الله تعالى بهم الإسلام وأهله.

لقد كان جنكيز خان أرحم منه بكثير عندما نصّ في «الياسّة» على إسقاط التكاليف والضرائب عن الشيعة والقراء والعلمَاء والمؤذنين، لكن تيمورلنك قتل الشيعة والقراء والعلماء والمؤذنين والنساء والشيوخ، وهو يدعي الإسلام، وهو بتصرفاته إنما يقترب من «الشّامانية» عقيدة المغول، التي تنص على أن القاتل لا يخاف عقاباً يوم القيامة، بل إن منزلته ستزداد ارتفاعاً بازدياد عدد ضحاياه الذين سيصبحون خدماً له، مقابل الخدمة الكبيرة التي تفضل بها عليهم وهي قتلهم!!!

وهذا ما قاله تيمورلنك لشهداء بغداد، وهو ينظر إليهم:

«معاشر الشهداء، لا تنسونا من الشفاعة يوم القيامة، لأننا كنا السبب في استشهادكم ودخولكم الجنة!!![١]».

وأخيراً، فإنه يبدو أن كثيراً من الحكام على مرّ التاريخ، يدينون بالشّامانية وهم لا يشعرون.

(١) تيمورلنك/٤٥٨، وتاريخ الترك في آسيا الصغرى بارتولد صفحة ١٤.

الفصل الثالث

تيمُورْلنْك الحَاكم

١ ـ نظرياتُه في الحكم.
٢ ـ أولويّاتُ الولاء عنده.
٣ ـ حكومته.
٤ ـ دهاؤه وبطشُه.

١ ـ نظرياته في الحكم:

عندما يكون الحديث عن الحكام في عصور التاريخ المختلفة، نجد أن ثمة نوعاً من التشابه بين الطغاة منهم، وذلك لأن الجميع يسيرون على مبدأ الغاية التي تبرر الواسطة، الذي نسب خطأ إلى «ميكيافيللي»، مع أنَّه وُجد قبله بكثير. . .

والمشكلة تكمن في تحديد الغاية، أو في إعلانها، وفي الأعم الأغلب، يرى الناس الوسيلة، وينتظرون طويلاً معرفة الغاية، دون أن يهتدوا إليها.

ولقد قامت حروب طاحنة كثيرة، قتل الملايين فيها، وشرد الملايين، وشغلت العالم سنين طويلة، ولكنهم إلى اليوم، لا يعرفون الغاية الحقيقية من تلك الحروب.

ولذلك، فإننا نرىٰ أن تيمورلنك، لا يختلف كثيراً عن غيره من الطغاة، فالمبدأ واحد، والغاية واحدة.

وتبقى إشارة عابرةٌ، وهي أن الطغاة لا يصنعون أنفسهم، وإنما تصنعهم الشعوب التي ترضى بطغيانهم، وتسكت عن تصرّفاتهم. . .

إنّ تَيمورلنْك، لا يخرج أصلاً عن دائرة الطغاة الذين ملؤوا الدنيا

بأخبار حروبهم وفتوحاتهم، دون أن يعرف الناس إلى اليوم، الغاية التي كان يتوخّاها من حروبه، هذا إن كان ثمة غاية.

وقد كان تيمورلنك، كثيراً ما يقول: «إذا كان هنالك إله واحد، فيجب ألا يكون على الأرض إلّا حاكم واحد».

وربما تُفسِّر هذه النظريةُ تصرفات تَيمورلنْك وحروبه المتواصلة، ورغبته وهو على أبواب الثمانين، أن يغزو الصين، لقد كان يؤمن بأن العالم يجب أن يحكمه حاكم واحد، ولكنه نسي أن يقيم حكمه على الأسس القوية التي تكفل له ولأحفاده الاستمرار فترة من الزمن في حكم العالم، لقد أمضى حياته كلها في حروب لا طائل من ورائها، ولو أردنا مقارنتهُ بالإسكندر المكدوني ـ تجاوزاً ـ لوجدنا أن تيمورلنك كان مخرّباً ولم يكن فاتحاً، فهو لم يترك وراءه سوى الخراب والدمار، وذلك بعكس الإسكندر، والعرب، والرومان، الذين تركوا آثارهم قروناً عديدة في البلاد التي فتحوها، في الوقت الذي انهارت فيه امبراطورية تيمورلنك عقب وفاته.

لقد كان تيمورلنك واحداً من أولئك الذين ظهروا بسرعة، وانتهوا بسرعة، وبقيت قصصهم يتداولها الأحفاد عن الأجداد قرناً بعد قرن.

ومن أقواله الأخرى: «إن الحاكم الذي يهابُ الناسُ سوطه، أكثر من شخصه، غير جدير بالحكم»[1].

وقد يكون صادقاً في هذا القول، إذا كان يعني بالناس شعبه هو، حيث كان فيهم عادلاً ويتمتع بالمحبة والتقديس، أما عندما يتعلق الأمر بالشعوب الأخرى، فإن المقاييس تختلف، فهو في ذلك، شأنه شأن حكام أوربا في القرن التاسع عشر والعشرين، الذين كانوا يتغنّون

(١) تاريخ بخارى/٣٨٤.

بالديموقراطية والحريّة، ويتشدّقون بها في بلادهم وبين مواطنيهم فقط، أما عندما يتعلق الأمر بالشعوب المقهورة، فإنهم يُطبقُون أقسى ضروب الإرهاب والاستبداد، ويقفون مع جميع الحكام الطغاة، وهذا ما تفعله الأنظمة العنصرية اليوم، وما تيمورلنك إلا واحد من الحكام العنصريين.

ومن غريب المصادفات أن جميع الطغاة كان للشرق العربي النصيب الأوفى من اهتمامهم وحقدهم، وذلك لأن بلاد الشام ومصر، كانت على مرّ العصور، القوة الرئيسيَّة التي تصدّت للغزاة من الصليبيين والمغول وغيرهم.

ومن نظريّات تيمورلنْك الأخرى في الحكم، أنَّه يجب تسليط الأقلية على الأكثرية، في كلّ مكان وزمان، وقد طبق هذا المبدأ بحذافيره حيثما حلّ، وكان التطبيق الأمثل له في دمشق...

ذلك أنه عندما جاء إلى دمشق، كما سنرىٰ، ظهر بمظهر الشيعيّ المتعصّب، الذي جاء لنصرة «آل البيت» بزعمه، ولم يكن قصده من ذلك إلّا إطلاق أيدي «الخراسانيين» في أهل دمشق، وهم الذين أحرقوا الجامع الأموي، لا لشيء إلّا لأنه يذكرهم ببني أمية، والخراسانيون هؤلاء أشدّ مَنْ على الأرض عداءً لبني أميّة.

وعندما اشتد ساعد الشيعة في «طبرستان»، تظاهر بأنّه السّنيُّ الغيور على السنة، فأباد الشيعة بوحشية تامة.

ولما فتح بغداد سنة ٧٩٥ هـ ـ سنة ١٣٩٣ م، عيّن عليها حاكماً شيعياً، رغم أن غالبية أهلها من السنة.

وعندما أراد غزو الدولة العثمانية، اصطحب معه عدداً كبيراً من رجال الشيعة... وهكذا[1].

(١) تيمورلنك/٤٨٠.

ومن نظرياته، التي تبرر أعماله قوله: «في كل إقليم يسود العسف والظلم. يصبح من واجب كل أمير، كائناً من كان، أن يجتثّ أرباب الفتن، ويغزو هذا الإقليم، وذلك لصالح السلام العام والأمن، وعلى كل أمير مظفّر أنْ يُخلّص الناسَ من الذين يستعبدونهم».

ومن هذا المبدأ، غزا خراسان والهند وفارس والشام وآسيا الصغرى والصين، لتخليصها، كما زعم، من الفوضى السائدة[1]، وهنا نجدُ التّشابه الكامل بين نظرية تيمورلَنْك، ونظريات الاستعمار الحديث عندما ابتدع مبدأ الحمايةِ والانتداب ونظريَّةِ الفراغ.

٢ ـ أولويّاتُ الولاءِ عند تيمُورلنكْ:

كان تيمورلَنْك مُسلماً تركيّاً، يمتّ إلى المغول بسبب، من بلاد ما وراء النهر، فما أولويات الولاء عنده؟.

كان ولاؤهُ الأوّلُ لقبيلته «قبيلة برِلَاس» حيث كان يشيد بها دوماً، ويُشيدُ بأبنائها الذين اتخذ منهم قادة له، ورفاق سلاح، منذ تشرده في الصحَارى، وحتى وفاته.

ويأتي بعد ذلك ولاؤه للأتراك عامَّةً، وبخاصة أتراك ما وراء النهر، ولم يكن يعدّ العثمانيين من الأتراك، بل كان يكنّ لهم عداءً شديداً، وربما فعل ذلك حسداً منه لهم لأنهم لم يكونوا معترفين أصلاً بصحّة إسلامه.

ثم يأتي ولاؤه لبلاده ما وراء النهر، وتفضيلها على خراسان، وإعجابه الشديد بسَمَرقند التي رآها زهرة على جبين الخلد، ورغبته في جعلها مركزاً للعالم الإسلامي، بدل بغداد والقاهرة، وهو ما فشل في تحقيقه.

(١) تاريخ بخارى/٣٨٤.

ويتبع ذلك، ولاؤُه للعادات والتقاليد التركيّة والمغولية، ولا سيّما «الياسَّة»، وانطلاقاً من ذلك كلّه، يقول «ابن عربشاه»: إن تيمورلنك لو ادعى الألوهية أو النبوّة لآمن به قومه!!.

ويأتي بعد ذلك كله، ولاؤه للإسلام، وبالطبع فإن هذا باطل من الوجهة الشرعية، لأنه لا يجوز للمسلم إذا قضى الله ورسوله أمراً، أن يكون له الخيرة من أمره، أي إن الولاء الأول والمطلق عند كل حاكم إسلامي حقيقي يجب أن يكون للإسلام وحده، وهذا ما دفع الكثيرين إلى الفتوى بكفره.

أما عن بلاد ما وراء النهر، حبِّ تيمورلنك الكبير، فإنه استطاع أن ينشر فيها الحركة العلمية والعقلية، حتى بلغ العنصرُ التركي في عهده درجةً من السموّ والعزة، لم يعرفها في تاريخه.

والواقع أن تاريخ الترك في آسيا الوسطى، إنما يبدأ بتيمورلنك، ذلك أن أمراء خوارزم والسّلاجقة على الرغم من أنّهم من الترك أصلاً، وكانوا يميلون كل الميل إلى الثقافة الإيرانية والعربيّة الإسلامية، إلا أنهم لم يهتموا كثيراً بنشر النفوذ التركيّ والثقافة التركيّة، وهذا ما يفرِّقهم عن تيمورلنك الذي كان يُمثل انتصار شخصية الترك على النظم المغولية والصينية والإيرانيّة والعربيَّة، وكان شديد الاهتمام بتثبيت حق السيادة للعنصر التركيّ.

ولذلك آثر استعمال اللّغةِ التركيَّةِ على العربيَّة، رغم كراهة المسلمين لها، بوصفها من بقايا المسيحية والبوذيّة[1].

وقد كان المؤرّخون في بلاد الشّام ومصر، يعلمون ذلك منه تماماً، فردّوا عليه بعنصرية مقابلة لشعوبيّته، فقال أحدُهم:

(١) تاريخ بخارى/٤١٩.

«إن الفتن لا تظهر إلا من الشرق، وذكر حديثاً عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال:

«اللّهم بارك لنا في شامنا ويمننا» فقال رجل: «ومشرقنا يا رسول الله» فقال: من هناك يطلع قرن الشيطان، وبها تسعة أعشار السحر، وكل بدعة ومنحسةٍ غالبها من بلاد الشرق»[1].

وبغض النظر عن درجة هذا الحديث من الصحّة، فإنه يعكس وجهة نظر القوم في بلاد الشام، ومدى كرههم للشرق، الذي كان يصدّر لهم الغزاة والضلالات قرناً بعد قرن...

وممّا سبق نستنتج أنه لم يكن للإسلام عند تيمورلنك ذلك الأثر المرتجىٰ أو المتوقع، وسيتضح ذلك ملياً، بإذن الله، في الصفحات التالية.

٣ ـ حكومَةُ تيمورلنك:

ـ أعضاء الحكومة:

كان على رأس الإدارة موظف يدعى ديوان بيكي، أي: كبير الحجاب، يعاونه «أرزبيكي» أي الحاجب، وأربعة آخرون من الحجاب، يوكل إليهم:

١ ـ الخراج والمكوس والشرطة.

٢ ـ تموين الجيش ورواتبه.

٣ ـ سجلات الجيش والمواريث.

٤ ـ نفقات البلاط السلطاني.

(١) الدرة المضية في الدولة الظاهرية، محمد بن صصرىٰ ـ كاليفورنيا ١٩٦٣، ويتناول حوادث الشام من ١٣٨٩ ـ ١٣٩٧. وهو أفضل مرجع عن الشام عشية ظهور =

وكان يعهد لكبار الموظفين بتنفيذ القوانين، وجمع الخراج، في رفق بالناس، وكان استعمال السوط ممنوعاً، وبالطبع، فهذا الكلام كله، لا ينطبق إلا على بلاد ما وراء النهر.

وكان لحكومة تيمورلنك أيام وشهور وأعوام خاصّة، كل عام ينسب إلى حيوان، يحسبون بها ما مضى من السنين.

وفي الكتابة كان لهم قلم «الدبرلجين» ويتألف من ٤١ حرفاً، وكان للجغتاي قلم آخر يسمى «أويغور» من ١٤ حرفاً، ولم تكن فيه حروف الحلق، وبه كانوا يكتبون توقيتهم ومراسلاتهم ودفاترهم وأشعارهم والياسّة[1].

وإلى جانب الحجّاب، كان لتيمورلنك مجموعة من الأعوان، منهم:

ـ من المحدثين: شمسُ الدين محمد بن الجزريّ، صاحب القراءات المشهور، وكان معه رغماً عنه، وقد ألف كتاب «الحصن الحصين من كلام سيد المرسلين» وهو مجموعة من الأحاديث الصحيحة إذا دعا بها الإنسان استجيبت دعوته، وكان يدعو بها دوماً على تيمورلنك[2].

ـ وكان ثمة المحدث الخواجَة محمد الزاهد البخاري، الذي فسّر القرآن الكريم في مائة مجلد.

ـ ومن القراء: مولانا فخر الدين، وعبد اللطيف الدامغاني، والشريف الحافظ الحسيني، ومحمود المحرق وجمال الدين الخوارزمي.

ـ ومن الوعاظ والسمّار: أحمد بن شمس الأئمة السّرائي، ملك الكلام، وكان يُجيدُ العربيةَ والفارسية والتركية.

= تيمورلنك. والكلام المنشور أعلاه، من الصفحة الثانية، القسم العربي.

(١) عربشاه/٣٤٨.

(٢) كشف الظنون ١/٦٦٩.

- ومن الكتّاب: الخَطَّاطُ: ابن بندكير، وتاج الدين السلماني.
- ومن المنجمين عدد كبير جداً، منهم مولانا أحمد.
- ومن أساطين الشّطرنج: محمد بن عقيل الخيمي، وعلاء الدين التبريزي.
- ومن الفقهاء: القاضي عبد الجبّار، وهو إمامه في الصّلاة.
- ومن المطربين: عبد القادر المراغي وولده صفي الدين، ونسرين...
- وكان يقرأ له القصص مولانا عبيد، ويعالجه الطبيبان: فضل الله وجمال الدين «اللذان يصنعان له معاجين الأحجَار، وفي سنّه يجتني باكورة الأبكار»، على حد قول عربشاه.

وإلى جانب هؤلاء كان ثمة عدد آخر من الموظفين[1].

أمّا بلاطه، فقد وصفه الرَّحالة «كلافيجو» فقال إنه كانت تلتقي فيه حضارة آسيا مُجتمعةً، وكانت سيدات البلاط يرزحن تحت جواهر نصف آسيا، أما صحاف الذهب والفضة فكانت بمقادير لا يصدّقها العقل.

أما أمراء البيت المالك فيتناولون طعامهم على الدوام في آنيةٍ فخمةٍ ويتعاطون الشراب في كؤوس كبيرة من الخمرة.

وكذلك الحفلات الكبرىٰ التي يشهدها الآلاف من الضيوف يقدم فيها الطعام والشراب في صحاف من الذهب في بذخٍ ليس له مثيل...[2].

- **الجيش والمخابرات:**

أما الجيش الذي كان عماد حكمه، فقد كان جيشاً ثابتاً حسن التدريب، اعتاد أفراده على الطاعة العميَاء، وكان قادته على أعلى

(1) عربشاه/٣٣٤ - ٣٣٨.

(2) تاريخ بخارى/٤٠٦ - ٤٠٨.

درجات الكفاية، وكان معظم الضباط الذين ساروا تحت لوائه، هم أنفسهم الذين كانوا معه، من أول حياته.

ومن أشهر هؤلاء: جهانكير برلاس، وسيف الدين برلاس، وآقْبغا، وعثمان عباس، ومحمد سُلطان شاه، وقماري، ومحمد فرعان، وحمزة بن الأمير موسىٰ، وتبان بهادر، وآخرون. وكان يختار ضباطه الآخرين من ذوي الكفاءة القتالية والشجاعة.

وكان على القادة أن يحرصوا على سلامة رجالهم، وكان على كل فارس أن يجهز بفرسين قويين، وجعبة مليئة بالسهام، ومنشار وفأس، وخيوط ومسلّات.

أما لباسُه فقبعة مخروطية ومعطف وأحذية بسيقان عالية.

وكانت الخيام تتسع لثمانية عشر جندياً، وكان يلحق بالجيش العامل، الجيشُ الاحتياطي من الرجال والنساء والغلمان.

أما الرتبُ العسكريّة فكانت:

- **تومان آغاسي**: وتعادل اللواء، ويقود صاحبها ١٠,٠٠٠ جندي.
- **البيكباشي**: قائد الألف.
- **اليوزباشي**: قائد المائة.
- **الأونباشي**: قائد العشرة.
- **الجندي العادي**.

وهذه هي الرتب العسكرية المغوليَّة نفسها وهي التي استعملها العثمانيون فيما بعد، وعنهم أخذها المصريّون في عهد أسرة محمد علي.

وكان ثمة رتبة «بكليربكي» أي أمير الأمَراء وهي رتبة خُوارزمية، تعادل رتبة المشير، وشارتها علم أحمر طويل بطرفه ذيل حصَان[1].

(1) تاريخ بخارى/٣٧٨.

وإضافة إلى الرجال، كان في عسكره كثير من النساء، يشتركن في الحروب، ويقابلن الرجَال، ويقاتلن مثلهم بالسيف والرمح والنبال، وإذا كانت إحداهن حاملاً، وجاءها المخاض، وهم سائرون، تنحَّتْ عن الطريق، ونزلت عن دابتها، ووضعت حملها، ولفته وركبت، بكل بسَاطة[1].

أما عن موقف تيمُورلنْك من جنوده وموقفهم منه أثناء الفتح، فالآراء فيه كثيرة.

فمن ناحية يزعم «فامبري» أنه كان على الجنديّ التيموريّ، أن يعامل عدوه بلطف، إذا ما استسلم إليه واسترحمه، وأن الجنديّ التيموريّ كان أبعد ما يكون عما وصفه به أعداؤه، بأنه مجرد غول شرس. . . .

ويذكر بعض المؤرخين العرب القدامى والمحدثين، وكذلك مؤرّخو تيمور من الفرس، أنّ كثيراً من الأوامر التي كان يُصدرها، إنما يبالغ في تنفيذها، وأن ثمة أفعالاً ارتكبت في حلب ودمشق دون علمه، وقد بكى حينما علم بها.

ونقول إنه لا صحة لذلك إطلاقاً، لأن تيمورلنك كان يُسيطر تماماً على جيشه، ولا يتمّ شيء إلاّ بإذنه وعلمه، لأنّ هيبته كانت تحول دون وقوع أية تجاوزات من أي فردٍ من أفراد جيشه، إذا لم يكن لتيمورلنك فيها أمرٌ أو هوى.

ويُؤكِّد ذلك ما ذكره «ابن عربشاه» من أنّه لو سرقَ أحدٌ من قادته أو جنده، قبل الإذن العام بالنهب، فإن تيمورلنك كان يحاسبهم حساباً عسيراً، وينزل بهم أشدّ العقاب، ولو كانوا من ذوي الرتب العالية، وأمّا

(١) عربشاه/ ٣٥٠.

بعد الإذن، فإنه يشجّعُهم على القتل والنهب، ولا يعاقب منهم أحداً أبداً. . .[1].

وأما ادعاؤُه بأنّه لا يعلم فتلك مصيبةٌ، وإن كان يدري فالمصيبة أعظم.

وحتى نعرف مدى انضباط جيشه، وسيطرته عليه، نذكر هذه الحادثة:

يُروى أن إحدى قلاع الهند استعصت على جنود تيمورلنك، فحنق وتغيّظ، وشتمَ ضباطه ووبّخهم وهمّ بقتلهم، فذهبوا إلى «محمد قاوْجين» وكان من أقرب الناس وأحبهم إليه، وكلموه في إقناع تيمورلنك بفك الحصار عن القلعة لكثرة الضحايا، وعدم وجود فائدة في الحصَار.

وما كاد قاوجين يفاتحه في ذلك، حتى حنق منه وتغيَّظ، وسلبه كل نعمه، وأعطاها لمتسول منبوذٍ في قصره، يُدعى «هراملك» ومنع الناس من مخاطبتهِ أو الشفاعة فيه.

ودام الرجل على ذلك حتى توفي تيمور، فأعاد له حفيده خليل كل أملاكه[2].

وكان جنود تيمورلنك على درجة عالية من الخبرة والكفاءة في الوصول إلى الكنوز المطمورة، مهما أُحسِنَ دفنها.

فكان الواحد منهم ينظر إلى أرض المكان، وترابه، ثم يقول: ليس هذا الثرى من ذلك التراب، ثم ينزل عن دابّتِه ويأخذ من ذلك التراب يشمّه، ثم يلتفت إلى الجهات الأربع، فيقصد منها جانباً، ثمّ لا يزال يسير بمن معه حتى يصلوا إلى المكان، فيحفره ويُخرج ما فيه مِن الدفائن.

(١) عربشاه/ ١٧٧.
(٢) عربشاه/ ٣٢٥.

وكانوا إذا وصلوا إلى المقابر والعمائر، يتوجّهون مُباشرةً إلى الخبء، كأنما وضعوه بأيديهم، وربما جاؤوا إلى مكان مرّ على ساكنيه وقت طويل، فيتوجّهون إلى مكان المطمور، حتّى يُبْهَتَ السَّاكنُ نفسُه حين يكتشف أنه لم يكن يعرف شيئاً[1].

أما عن عقائد جيشه فقد كان فيهم الترك عبدة الأوثان وعبدة النار من المجوس والفرس، والكهنةُ والسّحرة والمنجّمون، وكانوا يسيرون في جيشه يحملون أصنامهم، بينما يسجّع الكهنة الكلام، ويأكلون الميتة والدم المسفوح ويشربون الخمرة.

أما المخابرات، فقد كانت سلاح تيمورلنك الفعّال، الذي كان يُسهّل له فتح البلاد بأقل الخسائر، وكان لتيمورلنك عناية خاصّة بجهاز المخابرات، وقد كان يدير هذا الجهاز مجموعة من الموظفين يربو عددهم على ثلاثة آلاف، حتى إن أحد المؤرخين الأوروبيين، وصفه بقوله: «إنه أحكم جهاز مخابرات في العالم، حتى اكتشاف السكة الحديد»[1].

ولقد بث عيونه في أنحاء آسيا كلها، وكان منهم في بلاد الشام ومصر أحد كبار أعوانه المدعو «أطْلَمش» ومسعود الكججاني رئيس ديوانه، وكان هذان في القاهرة.

أما دمشق، فقد اكتشف فيها أحد الجواسيس وهو في زيّ متصوف بالسميساطية، علاوة على جواسيس في زي التجّار والمصارعين والصنّاع.

وفي سنة ٨٧٩ هـ ـ ١٣٨٧ م اكتُشف في دمشق ثلاثة جواسيس لتيمورلنك[3].

---

(١) عربشاه/٣٤٣.

(٢) تيمورلنك/٤٠٧.

(٣) تاريخ ابن الفرات ١٤/١/٩. والسميساطية خانقاه بناها علي بن محمد، في القرن =

وكان جواسيسه يكتبون له كل شيء:

فهم يكتبون عن الأوزان والأسعار، ويصفون الطرقات والسهول والجبال، وأسماء القرى والمدن والأبعَاد بينها، وأسماء المشاهير والأعيان في المدن الكبرىٰ وتفصيلُ حالهم، وأسماء الفقراء وشهرتهم ولقبهم وصناعتهم وأسماء الأمراء والحكام وخلافاتهم وأحزابهم...

ولذلك فإنه إذا حَل ببلد واجتمع بأعيانها، يشرع في سؤالهم عن أحوالها، وعن فلان وفلان، ومصير الخلاف بين هذا وذاك، فيبهت المسؤول من معرفة تيمورلنك بذلك كله.

وبطبيعة الحال، لم يكن الآخرون غافلين عن ذلك، فكانوا يفتّشون الخانات، ويسألون عن الغرباء ويراقبونهم، ولذلك كُشف بعضُ الجواسيس، وأقروا على الآخرين، لكن اتصال الحدود، وصعوبة مراقبة الداخل والخارج يجعل مُهِمَّة التجسّس سَهلةً بوجهٍ عام.

وبالمقابل. فقد كان للآخرين عيونٌ في بلاد تيمورلنْك لكنهم لم يكونوا علىٰ مُستوى رجاله وكفاءتهم وانتشارهم.

٤ ـ دهاؤه ومكره وبطشه:

كان تيمورلنْك مضرب المثل في المكر والخداع، فهو يقود ضحيَّتَهُ إلى المكان الذي يريده، وفي الزمان الذي يحدّده، ثم ينقضّ عليها في الوقت المناسب، ويجعلها أثراً بعد عين.

ولم يكن يستقر كثيراً على أسلوب واحد، بل كان يُغيِّر باستمرار، بحيثُ كان يخدع الجميعَ، دون أن يتمكن أحد من الاستفادة من تجارب الآخر.

= الخامس، وكانت تقع على يمين الخارج من باب الكلاسة، أي الباب الشمالي للجامع الأموي الذي كان يعرف بباب الناطفانيين. الدارس ٢/١٥١.

فكان ـ مثلاً، إذا أراد المسير إلى جهة معينة، يجمع قادة جيشه ومستشاريه، ويدلي كل منهم برأيه، ثم ينفض المجلس.

وبعد ذلك يدعو كبار القادة والضباط، فيتّفقون على التوجّه إلى المكان الفلاني، فيدعو تيمورلنْك قائد الجيش ويأمره بالتوجّه إلى ذلك المكان، وما أن يقطع الجيش بعضاً من الطريق حتى يأمرهم فجأةً بالتوجّه إلى المكان الذي يريده دون أن يكون قد أطْلع عليه أحداً من قادته، فإن كان في عسكره جواسيس للعدو، فإنهم يُخبرون سادتهم بوجهة تيمورلنك الأولىٰ، فيطمئنّون، ويَضِلون، ثم ينقض عليهم تيمُورلنك، دون أن يشعر به أحد[1].

وكان يروّج إشاعات ظاهرها ضدَّه، لكنها في الواقع محسوبة لمصلحته بدقة.

وسنقدم فيما يلي نماذج من تصرفاته ومكره:

ـ عندما كان يحاصر دمشق، سيَّر من أخبر المماليك بأنه قد ملّ من القتال، وأنه عازم على العودة إلى بغداد، وأن نصف عسكره عازمون علىٰ اللجوء إلى السّلطان الناصر، فبردت الهمم عن قتاله، واختلفت الآراء، ولم يشعر الناس إلا وجنوده يُهاجمون دمشق من جميع جهاتها.

ـ وعندما شعر السّلطان أحمد بن أُويس سُلطان بغداد، أنّ تيمُورلنْك قادم إليه بجيشه، في شوّال ٧٩٥ هـ ـ آب ١٣٩٣ م، بعث بالشيخ نور الدين الخراساني، وكان تيمور يقدره، فأكرمه، وقال «أنا أترك بغداد لأجلك»، وتظاهر بالعودة من حيث أتىٰ، فبعث الشيخ نور الدين كتبه بالبشرى إلى بغداد، وقدم في إثرها، فسار تيمور إلى بغداد من طريق آخر، فلم يشعر ابن أويس ـ وقد اطمأن ـ إلا وتيمور قد

(١) عربشاه ٣٢٠ ـ ٣٢٣.

نزل غربي بغداد قبل أن يصل إليها الشيخ نور الدين، فدُهش وأمر بقطع الجسر، ورحل بأمواله وأولاده في السحر، فأدركه ابن تيمور، فنجا بنفسه ووصل إلى حلب في أسوأ حال[1].

ـ وعندما اجتاز على سيواس وحاصرها، بذل لأهلها الأمان فاستسلموا، وحلف لهم أنه لن يضع فيهم السّيف، فلما تمكن منهم، حفر لهم أخاديد ودفنهم فيها أحياء، وكانوا ثلاثة آلاف مسلم، ثم أحرق المدينة وخرج[2].

ـ وعندما سار إلى آسيا الصغرى، حشد له السّلطان العثماني بايزيد جيشاً يُناهز المليون من الجند، فعمد تيمورلنك إلى أساليبه المعهودة في الخداع والتضليل، فأرسل يقول لبايزْيد:

«أنت رجل مُجاهد في سبيل الله، وليس غرضي قتالك، ولكن اقنع ببلاد أبيك وجدك، وسلم لي البلاد التي كانتْ مع صاحب الروم، في زمن الملك أبي سعيد».

فانخدع بايزيد، ومال إلى الصّلح، وبردت همته عن القتال، وتوقف عن المسير، فلم يشعر إلا والأخبار قد وردت عليه، بأنّ تيمورلنك نزل على «كماخ» وقتل أهلها وسباهم، فسار إليه على عجل.

وهنا لجأ تيمورُ إلى الخدعةِ الثانية، فتظاهر بالانسحاب، فظنّ بايزيد أنّه خاف منْه، وكان تيمور قد سلك طريقاً من خلف خطوط بايزيد، وسار في بلاده مسافة ثمانية أيام، ونزل على عمّورية ـ أنكورية ـ وأضرم فيها النار، فسار بايزيد في عساكره المليون، ثمانية أيّام دون توقف، إلى أن أشرف على تيمور، وقد أرهقه التّعب، وكلّت خيولُه، ولم

(١) السلوك ٣/٧٨٨.

(٢) الروضة، لابن الشحنة ٢/١٩٠.

يُمْهله تيمورُ حتى يستريح، فهاجمه في أول المحرم سنة ٨٠٥ هـ - آب سنة ١٤٠٤ م، ثم تظاهر بالهزيمة، فتبعه بايزيد ليفاجأ، للمرة الثالثة، بوجود كمين، فانكسر بايزيد وأسر، وأمضى بقية أيامه في قفص من حديد، يُطاف به في البلاد، ليدفع ثمن غبائه، وهاجم تيمور بلاده وعاث فيها فساداً ستة أشهر، يقتل ويحرق ويأسر دون رحمة، وكأنها بلاد كفار، علىٰ الرغم من أنّ السّلطان بايزيد، كان يقف في خط المواجهة الأول مع أعداء الإسلام التقليديين: البيزنطيين(١).

- وفي غزوه لشيراز، مرَّ على أصبهان وحاصرها، ثم دخل ستةُ آلاف من جنوده إلى المدينة فعاثوا فيها فساداً، فاتّفق أهلُها على قتلهم، فقتلوهم، فأعمل تيمور فيهم السيف، وأضرم النار، فعمد من بقي من ضعفاء المدينة إلى جمع الأطفال والعجائز ووقفوا بهم أمام تيمورلنك يسترحمونه ليُبقي عليهم، لأنه لا ذنب لهم فيما جرىٰ، فمال عليهم بفرسه، وتبعه جيشه فمات الجميع تحت سنابك الخيل،وغادر البلد بعد أن تركها قاعاً صفصفاً(٢).

- وعندما دخل «دهلي» استاء أهلُها من تصرفات جنوده وتعدّياتهم على النساء، فقرروا المقاومة، فبدؤوا بنسائهم وبناتهم فذبحوهنّ بأيديهم، وكذلك فعلوا بالصبيان، حتى لا يقعوا في قبضة تيمور، ولما علم بذلك، اعتبر عملهم هذا إهانة له ولجيشه، وقلة أدب من الهنود، فقتل منهم مقتلة عظيمةً، وأقام من رؤوسهم الأبراج، على العادة، ومع ذلك، فقد بقي مُتغيظاً منهم طوال حياته(٣).

وأخيراً، يروي «ابن تغري بردي» أن الأمير - أسنباي الزردكاش -

(١) السلوك ٣/١٠٩١، إنباء الغمر ٢/٢٢٥، عربشاه/٢١٨ - ٢١٩.

(٢) عربشاه/٤٨،وإنباء الغمر ١/٣٣١.

(٣) تيمورلنك/٢٤٤. ودهلي هي نفسها «دلهي».

الذي أَسَره تيمُور قال له إن تيمور، عندما دخل بغداد للمرة الثانية بعد عودته من دمشق، ألزم خمسين ألفاً من جنده، بأن يأتيه كل واحد منهم برأسين من أهل بغداد، فوقع القتل فيهم، حتى اكتمل العدد المطلوب، فبنى منهم تيمور أبراجاً بشرية هائلة، قدرت بمائة وعشرين برجاً، وكان الرجل من جنوده، إذا عجز عن إحضار رأس رجل، قطع رأس امرأةٍ، وحلق شعرها. . . ويبدو أن تيمورلنك أراد أن يضحّي بأهل بغداد، في عيد الأضحى، لأنهم قتلوا رسله(١).

والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن هنا، هو: لماذا فعل تيمورلنك ما فعل؟ وما سبب ولعه بسفك الدماء؟ وسنحاول من جهتنا تقديم التفسير لا التبرير.

ثمة عوامل كثيرة دفعت تيمورلنك إلى ذلك، منها:

١ - زعمُه بوجُود قوةٍ خارقةٍ تدفعه إلى القتل، وأمّا هذه القوة، فعلمها عند الله، ثم عند تيمورلنْك. . .

٢ - زعمُه بأنّه رأى النبي الكريم في المنام، وأنّه قاله له إنّه هو الصدّيق الذي يحمي آل البيت.

وهذا لا يعدو أن يكون أضغاث أحلام، لأن الحلم شرعاً، لا يلزم إلّا صاحبه الذي رآه، ولا تشن الحروب في العادة لرؤيا، رآها هذا أو ذاك. . .

٣ - الجهاد المقدس، ونعني به ما كان من غارته على بلاد الكرج وفرسان القديس يوحنّا في إزمير، وإن كان هذا الجهاد، متواضعاً، أمام حروبه مع المسلمين.

(١) النجوم الزاهرة/١٢/٢٦٦، وإنباء الغمر ٢/١٤٨ و ٢٠٨.

٤ ـ الزعم بأن الآخرين قد فقدوا حماستهم الدينية، وأن عليه إعادتهم إلى جادّة الصواب.

٥ ـ إرهاب الآخرين وتخويفهم إلى درجة الذعر والشلل التام ـ وكان يردّد حديث الرسول الكريم: «نُصِرتُ بالرعب مسيرة شهر» ويطبّقه على نفسه.

٦ ـ تحقيقُ الأمجاد الشخصية، وهي أوهام تراود نفوس الطغاة، عندما يتصوّرون أن حروبهم هي التي تخلدهم، لأن الشهرة والخلود تتحقق بالعدل لا بالإرهاب.

٧ ـ عجزه وشلله، والمثل العربي يقول:
«كل ذي عاهةٍ جبار»[1].

وأخيراً، فإنه لو أمكن سؤال الطغاة عن أسباب طغيانهم، وحقيقة مراميهم، لهانت المشكلة، لكنَّ الأمر الأهم هو أنه لا يمكن محاسبة كثيرٍ من الطغاة إلّا بعد وفاتهم...

(١) انظر تيمورلنك/٤٨١.

الفصل الرابع

مصر والشَّام
عشيَّة ظهور تيمورْلنْك

١ ـ المماليك الجراكسة والسلطان برقوق.
٢ ـ نكبة دمشق الأولىٰ سنة ٧٩١ هـ.
٣ ـ نكبة دمشق الثانية سنة ٧٩٣ هـ.
٤ ـ نكبة دمشق الثالثة سنة ٨٠١ هـ.

ـ الملكُ الظاهرُ برقوق، والمماليك الجراكسة:

كان السُّلطان سيف الدين قلاوون الألفي، قد أقام سلالةً حاكمةً في دولة المماليك، استمرّت نيفاً ومائة عام، وكان آخر سلاطينها، السّلطان حاجي بن الأشرف شعبان.

ونظراً لصغر سنّه، فقد كان يُدبّر الأمور في دولة المماليك، اثنان من كبار الأمراء، هما برقوق وبركة.

وقد أراد الأمير برقُوق، أن يحذو حذو السُّلطان قلاوون، فعزل حفيده حاجي، ونصّب نفسه سُلطاناً وانفرد بالحكم وأطاح بالمعارضين. وفي مقدمتهم زميله في الكفاح الأمير بركة، ولقّب نفسه بـ: «السّلطان الظاهر سيف الدين برقوق»، وقد تمّ ذلك كله في شهر رمضان سنة ٧٨٤ هـ ـ تشرين الثاني سنة ١٣٨٢ م.

وكان برقوق هذا، جركسيّ الأصل، ولذلك قرَّب الأمراء الجراكسة منه بحيث سيطروا من بعده على دولة المماليك حتى سقوطها بيد العثمانيّين، وأصبح المماليك من الأتراك والجنسيّات الأخرىٰ، من الدرجة الثانية، وقد اصطلح المؤرخون على تسمية دولته باسم دولة المماليك البرجيّة، تمييزاً لها عن دولة المماليك البحريّة التي كانت تسيطر على الحكم، قبل وصول برقوق إليه.

وكان «السّلطان الظاهر برقوق» قد أُخذَ صَغيراً من مناطق القوقاز حيث يسكن الجراكسة[1]، وبيع ببلاد القرم، ثم جلبه الخواجا فخر الدين عثمان بن مسافر إلى مصر فاشتراه الأمير يلبغا العمري، وكان اسمه «الطنبغا» فسمّاه «برقوقاً» لأنه وجد عينيه مثل البرقوق، وجعله من مماليكه.

أما مولده، فقد ذكر هو فيما بعد أنه ولد في حدود سنة ٧٤١ هـ - ١٣٤٠ م.

ومُشكلة برقوق هي أنه لم يكن في مستوى «قلاوون» ولم يكن عنده أولاد مثل أولاده، ولكنه تجاهل ذلك، واستمات في المحافظة على عرشه، وذاقت البلاد الويلات بسببه، ولاسيما عندما عُزل بعد سبع سنوات، وعاد ثانية إلى عرشه على حطام مدينة دمشق، التي قُدّر لها أن تكون ميداناً للحرب بينه وبين خصومه.

ولم يكد يستقر على عرشه ثانيةً، حتى خطر على باله ما خطر على بال هارون الرشيد، الخليفة العباسي الذي أراد أن يستخلف ثلاثة من أولاده، هم الأمين والمأمون والمؤتمن، وكانت النتيجة، ما يعرفه الجميع، من نشوب الحرب الأهلية بين الأمين والمأمون، وتدمير بغداد، وذبح الخليفة الأمين، رغماً عن العهود والمواثيق، ونسخة العهد التي أودعت في جوف الكعبة...[2].

وكذلك فعل برقُوق، فقد أوصى قبل وفاته بيوم واحد، لأولاده الثلاثة: فرج، وعبد العزيز، وإبراهيم، وحلّف الأمراء على السمع

(١) عن الجراكسة، وحكامهم بمصر منذ عهد برقوق، وحتى عهد الملك فاروق ١٩٥٢ م انظر: الموسوعة الإسلامية ٦/٣٣٧ - ٣٥٠/، وتعليقات راشد رستم، وزاهد الكوثري، والمصَادر الموجودة هناك.

(٢) انظر المزيد من التفصيلات في ابن كثير ١٠/٢٢٣ وما بعد.

والطاعة فحلفوا، علماً بأن أكبرهم، وهو فرج، كان في العاشرة من عمره...

وكان لهذا التصرّف، أسوأ الأثر على بلاد الشام ومصر، لأنّ السُّلطان المقتدر في دولة المماليك، كان يتعرض للمتاعب والمشاكسات في الأحوال العادية، فكيف يكون الحال عندما يكون السّلطان «صبيّاً» في دولةٍ كلُّ أميرٍ فيها يُمثّل دولةً!!.

إن هذه الأنانية المفرطة، التي تدفع بالحكام إلى التضحية بمصَالح شعوبهم حباً في أولادهم، من أسوأ الظواهر التي ابتليت بها الدولة الإسلامية على مرّ العصُور...

والغريب، أنّ الظاهر برقوق نفسه، إن كان يجهل التاريخ الإسلاميّ، فهو بالتأكيد، يعلم:

- أن الملك المعزّ أيبك أوصى لابنه عليّ، ثم عُزل وحل محله قُطُز.
- وأنّ الظاهر بيبرس أوصى لأولاده الثلاثة، ثم خُلعوا وحل محلهم المنصور قلاوون.
- وأن الأمراء وافقوا على تنصيب السّلطان حاجي بن الأشرف شعبان، ثم خلَفَهُ برقوق نفسه.

فعلى أي أساس، كان واثقاً، من أنّ الأُمراء سيوفون له وحده، مع أنهم، وعلى مرّ العصور، طالما نكثوا أيمانهم، وكان هو نفسه واحداً منهم!!.

وبأيّ منطق كان يظن أن الأمراء سيُسلّمون لأولاده أو بالأحرى لأطفاله بالحكم!!.

لا يوجد هنالك إلا منطق واحد، هو منطق الحبّ لأولاده، والحب أعمى.

هذا هو ملخص الوضع السياسيّ في بلاد الشام ومصر عشية الغزو التيموريّ.

وعلى هذا، فإن تيمورلنك لم يكن بحاجةٍ إلىٰ ذكاء شديد حتى يدرك أنّ هذا هو أنسب الأوقات لاجتياح بلاد الشام، وهو ما حصل بالفعل.

وسنعرض فيما يلي، نماذج من الصراع على السّلطة، الذي نكبت به دمشقُ خاصّةً وبلاد الشام عامة، وتشمل هذه النماذج، الوقائع التالية:

١ ـ نكبة دمشق الأُولى سنة ٧٩١ هـ وتشملُ المعارك التي خاضها السلطان برقوق على أبواب دمشق يوم كان معزولاً عن العرش.

٢ ـ نكبة دمشق الثانية سنة ٧٩٣ هـ، وتشمل المعارك التي اندلعت في قلب دمشق بين يلبغا الناصري ومنطاش والتي تعرف تاريخياً باسم فتنة الناصري ومنطاش.

٣ ـ نكبة دمشق الثالثة سنة ٨٠١ هـ، وتشمل المعارك والفتن والمذابح التي تمت في مستهلّ حكم السّلطان الناصر فرج بن برقوق وبين أمرائه والأمراء الموالين لأبيه، وتعرف هذه بفتنة نائب دمشق الأمير تنم.

ومن حُسن الحظ أن وُجد بدمشق يومذاك عدد من المؤرخين الذين سجّلوا الحوادث يوماً بيوم، كما شاهدوها، وقد وصلت إلينا كتبهم، مطبوعة، ومخطوطة، وكان بودنا نشر كل شيء بالتفصيل التام، ولكننا وجدنا أن ذلك يستدعي مؤلفاً مستقلاً، فاكتفينا ببعض «اللوحات» «لأن فيها ما ينبىء عن كل شيء.

١ ـ نكبة دمشق الأولى على يد السّلطان بَرقوق:
سنة ٧٩١ هـ ـ سنة ١٣٨٩ م.

في أوائل سنة ٧٩١ هـ، أعلن «نـائب حلب يلبغا النـاصري» العصيان على سيده السّلطان «برقوق». وكانت كل الدلائل تشير إلى رغبته في أن يصبح سُلطاناً أُسوةً بالآخرين، وقد عاضده ووقف معه أحد الأمراء الذين ربّاهم برقوق وأحسن إليهم وصاروا من مماليكه، لكنه سرعان ما انقلب على ولي نعمته وعاث في الأرض فساداً، وكان «أشأم» رجل على الإطلاق، على الشام وعلى دولة المماليك، ونعني به (الأمير منْطاش).

وقد سارت جيوش يلبغا وحليفه إلى دمشق، بعد أن أحكمت سيطرتها على جميع نيابات الشام، ثم تقدمت ببطء إلى القاهـرة، وفشلت جميع جهود السطان في صدّها، إلى أن استطاع «الناصري» دخول القاهرة ظافراً، واختفىٰ السّلطان برقوق في جمادى الآخرة ـ حزيران، من العام نفسه.

ثم استسلم السّلطان، فعفا عنه الناصريّ، وأرسله إلى الكرك، وهي المنفى الطبيعي لجميع سَلاطين المماليك، وأصبح الناصريّ هو السيّدُ المطاع في مصر، وإن لم يعلن سلطنته، بل اكتفى بإعـادة السّلطان حاجي إلى عرشه، ليكون الواجهة التي يحكم من ورائها حتى تتاح له الفرصة للانفراد بالسُّلطة.

ونظراً لتعاظم دور الناصري هذا، فقد حسده حليفه، وشريك كفاحه منطاش، الذي استطاع بجرأة ودهاء، أن يطيح بالناصري، وينفرد بالحكم.

ولم يحاول «منطاش» قتل زميله، بل سجنه في الإسكندرية،

ووجّه اهتمامه إلى الخطر الأكبر الكامن في «الكرك» وهو السلطان المخلوع برقوق، فأرسل إليه من يقتُلهُ، ولكن الناصري، كان قد أوصى نائب الكرك، بإطلاق سراح السّلطان إذا ما ألمّ به، - أي بالناصري - أي خطب[1].

وتمّ إطلاق سراح السّلطان الذي اتجه إلى دمشق ليتقوّى بها تمهيداً لعودته إلى عرشه.

وكانت دمشق في العصر المملوكي تلعبُ دوراً هاماً في مصير السّلطنة في القاهرة، فكان السّلاطين المخلوعون، أو الأمراء الطامعون، يتخذونها مركزاً لتثبيت أقدامهم تمهيداً للوصول إلى العرش في قلعة الجبل بالقاهرة، ومن هؤلاء على سبيل المثال السّلطان الناصر محمد بن قلاوون، والملك المؤيّد شيخ وغيرهما.

وثمّةَ أمر حيويّ وهام في الموضوع، وهو أهل دمشق، فقد يُخيَّل للوهلة الأولى أنهم كانوا يقفون على الحياد بين المماليك المتناحرين، ولكن الأمر في الواقع كان على الضد من ذلك تماماً.

فقد كانوا يشاركون في القتال بمحض إرادتهم، مرةً مع هذا، ومرة مع ذاك، بحسب ما يتراءى لهم، وكانوا في الغالب يقفون مع من يعتقدون أنه على الحقّ، ويقاتلون معَه قتالاً ضارياً، حتى لو طلب منهم الوقوف على الحياد.

وهذه ناحية تعطي صورة واقعية ودقيقةً عن طبيعة الناس في تلك الفترة، وهو ما دفع سلاطين المماليك جميعاً من غير استثناء، إلى محاولة إرضاء أهل دمشق، وتنفيذ جميع طلباتهم حتى لو كان من بينها عزل نائبهم نفسه.

---

(١) عن الناصري ومنطاش انظر السلوك ٥٩٢/٣ وما بعد.

وهذا الـدور المميّز لدمشق، انقضى بدخول السّلطان العثماني سليم إليهـا، سنـة ٩٢٢ هـ - سنـة ١٥١٦ م، حيث تحـولت دمشق، ولا سيما بعد ثورة جانبردي الغزالي سنة ٩٢٦ - سنة ١٥٢٠ م، إلى ولاية سَامعة ومطيعة[1].

أما السُّلطان المخلوع برقُوق، فقد وصل إلى دمشق في شوال من العام المذكور ٧٩١ هـ - أيلول ١٣٨٩ م، والتقى في الشهر التالي مع القوات التي أرسلها الأمير منطاش من القاهرة، على شقحب، فانتصر ونزل على «قبة يلبغا» ثم تقدم إلى المدينة، يريد دخـولها فشتمـه «الشوام»، وقذفوه بالحجارة، فعاد مذعوراً، وقد أذهلتْه المفاجأة، لقد قرر أهلُ دمشق محاربته وعدم تمكينه من دخول المدينة وبدأت بذلك الكوارث . . .

فقـد تقدّم السّلطان، ونـزل تحت القلعة عنـد جسر الـزلّابية (الزرابلية كما يلفظ اليوم)، وقطع المياه عن المدينة، فردّ عليه الناس برجمه بالحجارة من القلعة، فأحرق سوق الزلابية حتى باب الحديد[2]، وانتقل إلى جامع يلبغا[3]، فرموا عليه، واشتعلت النار في الجامع وما حوله، فتركهم وهرب.

---

(١) عن دور دمشق في دولة المماليك، انظر الفصل السابع من كتابنا «دمشق بين عهد المماليك والعثمانيّين» ص ٣٢٩.

(٢) **باب الحديد**: باب القلعة الذي في الجهة الشمالية، انظر قلعة دمشق للدكتور عبد القادر ريحاوي ص ٢٣.

(٣) **جامع يلبغا**: أنشأه الأمير سيف الدين يلبغا، وبدىء بإنشائه ٧٤٧ هـ وعزل بانيه عن نيابة الشام، ثم قتل سنة ٧٤٨ هـ قبل اكتمال بنائه، وهو الذي بنى «قبة يلبغا»، والغريب أنه رغم قصر المدة التي قضاها في دمشق، فقد ترك أثرين هامين هما هذا الجامع والقبّة، وتجري الآن إعادة بناء الجامع. مختصر تنبيه الطالب/ص ٢٢٧. وتقع القبة في منطقة القدم اليوم، وهي أول محطة على طريق دمشق القاهرة.

وانتشر القتال والتخريب على نطاق واسع، لا يصدّقه العقل، فكان السُّلطان وأعوانه ينهبون في الغوطة والقرىٰ، يشاركهم «أوباش دمشق»،في حين كان أهل دمشق يخربون ويحرقون المباني في خارج السور.

وكان في مدينة دمشق آنذاك عدة أحياءٍ كبرى خارج السور هي العُقيبة وسوق صاروجا والصّالحية من جهة الشمال، والشُّويكة والسُّويقة والميدان، من جهة الجنوب، بالإضافة إلى وجود تربتي دمشق الرئيستين: باب الصغير والفراديس (الدحداح اليوم)، وعدد كبير من الأسواق والرباطات والترب الصغيرة الخاصة والمساجد التي تقع على الطريق، وكانت هذه كلها تشكل ميداناً واسعاً للمعارك.

وتتابع هجوم السُّلطان على المدينة، «والعوامّ» كما يُسمّيهم المؤرخون، يصدّونه ويُسمعونه ما يكره، ومع كل هجمةٍ يزداد القتلى، وينتشر الخراب، وتشتعل الحرائق. . .

وفي مستهلّ ذي الحجة، هاجم السلطانُ المدينة، ورمى النار في البيوت والأسواق، وأحرق «ميدان الحصى»، «الميدان اليوم» والسّوق العتيق تحت القلعة، وبيت النساء، وضجّ الناس بالبكاء، وكان يوماً رهيباً «انفتحت شهية الناس فيه على الحريق، فصار كل منهم يحرق ما يحلو له»[1].

وبعد ثلاثة أيام، وفي يوم الثلاثاء، أمر نائب دمشق، أن تحرق دكاكين السماسرة التي كانت خارج باب الجابية، وسوقُ الحدادين، خارج السور، وسوقُ الخشابين ـ خارج الباب الصغير ـ واندلعت النار في جوانب المدينة، وشرع الناس في هدم البيوت وأخذ الأخشاب حتى

(١) محمد بن صصرىٰ: الدرة المضية ص ٣٥، وهو من شهود العيان.

قال الناس: إن دمشق لن تعمر ثانية، وصار الناس يبكون عليها، والنار تلتهم معالمها، حتى أحزنت القريب والبعيد.

وجاء عيد الأضحى، ولم يشعر به أحد. . . وزاد الطين بلّةً، أن تصدّى قاضي القضاة «ابن القُرشي» ومعه بعض «الجُهّال»، أمثال (ابن المنكورسي) (وابن المنهال)، لتحريض الناس على «الجهاد»، وكأنهم كانوا بحاجة إلى من يحرضهم.

وامتلأت المدينة بأهل الغوطة، حتى لم يبق بها متّسع لقدم، وأقام الناس «الوافدون» في المساجد والترب، وامتلأت «الكلاّسة» شمال الأموي، بالنسوان والأطفال، والمياهُ مقطوعة عن المدينة، وقد هاجمها الجوع والبرد أيضاً[1].

كل ذلك وهجمات السّلطان لا تتوقف عن المدينة، واحترق الشاغور وزاوية المغاربة.

ودخلت السنةُ الجديدةُ، والناسُ في ضيقٍ شديد لأنّهم لم يشتركوا في قتال كهذا من قبل.

وقد وصل إلى دمشق في تلك الأثناء (ابن حجّة الحموي)، قادماً من القاهرة، فوصف حال دمشق وصف شاهد عيان، وكان مما ذكره «ولقد والله تمنيتُ خروج الروح عند دخولي دمشق، فالقتلى حول قُبَّة يلبغا، لا يجدون من يدفنهم، وميدان الحصىٰ والقبيبات وقصر حجاج، تعمل النار فيها، وسوق الحدادين بدمشق تحوَّل إلى ركام، والقصور والمدارس والمسَاجد المحيطة بالسور والقلعة، كلها تحولت إلى أنقاض، تنعق فيها الغربان. . .»[2].

(١) المصدر السابق/٤٣.

(٢) رحلة ابن حجة الحموي الأوراق ١/ب. و ٢/أ والمخطوط كله عبارة عن رسالة كتبت =

ولم يُرفع هذا البلاء عن دمشق، إلا بعد معركة شقحب الثانية ١٧ محرم سنة ٧٩٢ هـ ـ كانون ثاني سنة ١٣٩٠ م، التي انتهت بهزيمة «الجيش المصري»، الذي كان يقوده «منطاش»، وأَسْر السلطان المنصور حاجي، والخليفة، وقد دخل السلطان الظّاهرُ برقوق إلى القاهرة في صفر، وانتهى بذلك الفصل الأوّل من نكبةِ دمشق، الذي استمر ما يزيد على ثلاثة شهور.

أما أهلُ دمشق «الشّوام» فما كادوا يسمعون برحيل السّلطان، حتى عادوا إلى عادتهم القديمة، حيث كان أول تفتح الأزهار، وتفجّر الأنهار، واتجهوا إلى الغوطة ليُعوِّضوا ما فاتهم، ونسوا كل شيء، كأنه لم يكن[1].

وقد نظم شعراء دمشق قصائد طويلة وكثيرة في هذه المناسبة، مناسبة الحصَار والحرب والدمار، ما تزال مدونة في كتب التّاريخ.

وكان العام الجديد عام راحة نسبيَّةٍ لأهل دمشق، لأن منطاشاً رحل عنها إلى الشمال، ورحل معَهُ الخراب والدمار...

٢ ـ نكبة دمشق الثانية على يد يلبغا الناصري ومنطاش رجب سنة ٧٩٣ هـ ـ حزيران سنة ١٣٩١ م:

وبعد أن استقر السُّلطان في القاهرة، أفرج عن يلبغا الناصريّ، وكلفه بتعقب «غريمه» «منطاش» وإحضاره حياً أو ميتاً.

وقد استقرّ «الناصريُّ» في تربة أرغون[2]، في حين استقرّ منطاش وجماعته في الميدان.

= شعراً ونثراً إلى الفخر المكانسي بالقاهرة في أواخر ٧٩١ هـ.

(١) المصدر السابق/٥٢، وابن الفرات ١٨٦/١/٩.

(٢) في جامع السنجقدار اليوم.

وانقسمت دمشق على نفسها، فانضمّ أهل الشويكة والميدان والصّالحية ومعهم الأوغاد، إلى «المنطاشيّة»... وبقي أهل دمشق الذين هم داخل السور مع «الناصريّ».

وقد بدأ «المنطاشيَّة الهجومَ، باحتلال جَامع يلبغا (المشرف على القلعة) ونصبوا فيه مدفعاً، وصاروا يرمون منه على الناس فلا يخطىء، ونصب الناصري مدافعه على جسر الزلّابية، وصار يرمي على جامع يلبغا.

وكأنَّ أهلَ دمشق لم يكفِهم ما حلّ بهم من الخراب على يد «الأوغَاد» الذين عُرفوا فيما بعد بالزعران، فانضمّ عربُ البقاع يتقدمهم أميرهم «ابن الحنش» إلى المعارك الدائرة، نجدة للناصريّ، ولما كانوا «قيسيَّةً»، فقد وقعوا بأسرهم في قبضة منطاش وجماعته «اليمنيّة» الذين أبادوهم عن بكرة أبيهم[1].

ثم انقسم عسكرُ «الناصريّ» إلى ثلاثة أقسام، وكأنهم في ميادين القتال:

- قسم يقاتل مَنْ في جامع يلبغا مِن تحت القلعة.
- والناصريّ يقاتل من تربة أرغون إلى الميدان.
- وفريق يقاتل من حكر السّماق[2] إلى جَامع تنكز، واشتعلت الحروب بجميع الأسلحة:

السّهام النارية والمدافع الحجرية، والمنجنيقات، والسيوف والدبابيس، والفؤوس...

---

(١) ابن صَصْرى/٨١.

(٢) حكر السماق: بين جامع تنكز ومباني الجامعة اليوم وحيّ القنوات. القلائد ٢٢٨/١.

(٣) جامع تنكز: بناه نائب دمشق الكبير تنكز سنة ٧١٧ هـ ـ سنة١٣١٧ م، وقد هدم وأقيم ثانية فوق محلات تجارية بشارع النصر اليوم.

وممّا زاد الأمور ضغثاً على إبّالة، أنّ الناصري، كما تبيّن فيما بعد، لم يكن جاداً في تصفية منطاش، لأنّه كان قاب قوسين منه، هذا في منطقة الباب الصغير، وذاك في القُبيبات، وكانت وجهة نظر الناصري أن السّلطان سينتهي منه حالما ينتهي هو من منطاش، ولذلك صار يتظاهر بتصعيد القتال، لإرضاء السّلطان الذي كانت عيونه تنقل له كل ما يدور. . .

فأمَر أهل الحارات والأسواق وطوائف المهن والعوام بالخروج لنصرة السّلطان فخرجوا، وخرج معهم اليهودُ والنصارى، واجتمع الكلّ خارج المدينة، فحذّرهم منطاش، وطلب منهم الوقوف على الحياد، لكنهم رفضوا، واشتدّ القتال وتوالت الحرائق وأعمال الهدم ليلاً ونهاراً، دون أن يكفّ أيّ فريق عن القتال.

وقد استمر القتال في هذه المرة قرابة شهرين، وتوقف في أواخر شعبان = تموز، حينما التجأ أخو منطاش إلىٰ الناصريّ، فهرب منطاش إلى الشمال. . .

ولم تتوقف المعارك بـرحيله، ذلك أن «المنـاحيس» من أهل دمشق، أرادوا تصفية حسابهم مع أنصار منطاش، ولما كانوا عاجزين عن اختراق الميدان، لشدة بأس «المناحيس» هناك، فقد انطلقوا إلى «الصّالحية» ونهبوها، وقتلوا وخربوا وأفسدوا، حتى رحم الناس أهل الصالحية، وبكوا عليهم. . .

وفي رمضان، دخل السلطان برقوق إلى دمشق، وأصدر عفواً عن الجميع، فهدأ الناس واطمأنوا، ثم غادرها إلى حلب، وقتل الناصري لثبوت اتصاله بمنطاش، ثم عاد إلى دمشق، وأخرج عشرين أميراً من جماعة منطاش، فوسّطهم[1] جميعاً. . . وانتهى بذلك الفصلُ الثاني من نكبة دمشق عشية ظهور تيمورلنك.

(١) التوسيط، قطع المجرم قطعتين، بضربة واحدة بالسيف على وسطه وهو ملقى على =

أمّا منطاش، فقد ظلّ حراً طليقاً، يعيث في الأرض فساداً، ويغير على مدن الشمال، دون أن يستطيع السّلطان القبض عليه، وأخيراً التجأ إلى «نُعَيْر» أمير العرب الثائر بدوره على السُّلطان وأقام عنده طويلاً، فاضطر السّلطان إلى العفو عن نُعير إن هو سلّم «منطاشاً»، وقد تم ذلك بالفعل، وسُلّم إلى نائب حلب، الذي ضرب عنقه، وأرسل برأسه إلى دمشق، في رمضان سنة ٧٩٥ هـ ـ سنة ١٣٩٣ م، وطيف بالرأس في شوارع دمشق وحاراتها، التي غُصّت بالناس الذين جاؤوا ليشهدوا نهاية ذلك الذي روّعهم ودمرهم وخرب ديارهم ومكن لعدوهم طوال أربع سنوات كاملة، وقد فرح الجميع بموته، ثم أُخذ الرأسُ إلى القاهرة، وأُسدل الستار على تلك المسرحية المفجعة[1].

ومن الأمور الغريبة. أنّه ظهرت في وسط المعارك الطاحنة بين منطاش، والناصريّ، والسّلطان، لوحات فنية رائعة تستحق التسجيل، وتتمثل في «برج الجابية» و «مسجد الجنّ».

فأما البرج، برج باب الجابية من سور دمشق، فقد حدث أن انهار بتأثير الضرب بالمنجنيق والحريق، مساء الثامن من محرم سنة ٧٩٢ هـ ـ كانون ثاني سنة ١٣٩٠ م فاستبشر السّلطان برقوق بدخول دمشق في اليوم التالي.

ولكنه عندما جاء، وجد البرج قائماً كما كان على الرغم من علوه وضخامة أحجاره، ذلك أن نائب دمشق والصنّاع والأمراء أعادوا تشييد

= ظهره، ويستعمل في عصر المماليك لعتاة المجرمين، وهناك طرق أخرىٰ هي: الخوزقة، والشنق، والضرب بالسيف والخنق والتغريق والموت جوعاً أو عطشاً. . . وتستعمل كل طريقةٍ بحسب مزاج السلطان، ونوع المحكوم عليه بالموت.

(١) ابن صصرى /١٣٩، إنباء الغمر ١/٣٦٤ و ٤١٤، ابن الفرات ٩/١/٥٣ ـ ١٢٣ والسلوك ٣/٥٩٠ ـ ٧٥٣، والنجوم ١٢/١ وما بعد، ونزهة النفوس ١/١٨٥ ـ ٣٣٤، ويستحق منطاش أن يؤلف عنه كتاب كامل.

البرج في الليلة نفسها على الرغم من ظروف الحصَار والقتال.

أمَّا مسجد الجن، ويقع في الميدان، فإن رجال السّلطان كانوا يهدمونه في النهار، لئلا يُستخدم في ضرب المنجنيق، ويسوُّونه بالأرض، ثم يأتي رجال دمشق وبُناتها، فيُعيدون بناءه بالكامل في الليل، فما يصبح إلا وهو معمور وهم يرمون منه، وقد تكرر هدمه وبناؤه مراراً حتى سماه الناس مسجد الجن، وهذا يدل على التقدم العمراني المذهل في عصر المماليك[1].

٣ ـ نكبةُ دمشق الثَّالثة سنة ٨٠١ هـ ـ سنة ١٣٩٩ م:

في يوم الخميس الرابع عشر من شوال سنة ٨٠١ هـ ـ حزيران سنة ١٣٩٩ م، استدعى السّلطان برقوق، الخليفة والقضاة وكبار الأمراء، وحلّفهم على السَّمع والطَّاعة من بعده، لابنه فرج ومن بعده لابنه عبد العزيز، فإبراهيم، وأن يكون الأمير الكبير «أيتمش» الوصيَّ على أولاده، والمتحدثُ في مصَالح الدولة[2].

وتُوفي السلطان في اليوم التالي، ودفن في تربة الجبل بالقاهرة، حسب وصيته، وتولى الناصر ابنَه الحكم، فمن هو؟.

ولد السلطان الناصر فرج سنة ٧٩١ هـ ـ سنة ١٣٨٩ م، قبيل تنحية أبيه عن العرش، وكانت البلاد في حالة عصيبة من الانقسام والفوضى، فسمَّاه أبوه «بُلغاق»، أي فتنة، ولما عاد إلى عرشه، سماه «فرجاً»، لكنّ الناس تمسّكوا بالاسم الأول، لكثرة الفتن والشرور والأهوال التي حدثت في عهده، وكان أشدها اجتياح تيمورلنك لبلاد الشام.

(١) عن البرج والمسجد انظر: ابن صصرى الصفحتان ٤٨ و ٨٦.

(٢) السلوك ٩٣٦/٣، ونزهة النفوس ٢٩٤/١، والنجوم الزاهرة ١٦٨/١٢.

ويقول المقريزي عنه:

«إنه ما كان إلاّ فتنةً، أقامه الله تعالى نقمةً على الناس، ليُذيقهم بعضَ الذي عملوا».

وهو ثاني ملوك الجراكسة بمصر «تجاوزاً» والسادس والعشرون من سلاطين المماليك.

وأمّه روميَّةٌ اسمها «شيرين»، وهي أخت (أو ابنة عم) الأمير تغري بردي أمير السلاح، والد المؤرخ يوسف صاحب النجوم الزاهرة.

وقد جلس على العرش، يوم وفاة أبيه، وأحضر الخليفة والقضاة والقادة، وبايعوه بالسَّلطنة، وقلّدوه أمور المسلمين، ولقّبوه بالملك الناصر، وكان عمره عشر سنوات فقط...

أما أركان حكومته فكانوا:

- **الخليفة**: (المتوكل على الله العباسي) أبو عبدالله محمد.
- **أتابك (قائد) العسكر**: أيْتَمْش البجّاسي.
- **أمير السلاح**: خاله: تغري بردي.
- **نائبُ الشّام**: تنبك البجاسي المعروف بِتَنَمْ الظّاهري.
- **نائب حَلب**: آقبغا الجمالي.
- **الدوادار الكبير** (كبير الأمناء) الأمير بيبرس، و غيرهم...[1].

وقد استمرّ يحكم، مع فترة عزل قصيرة، إلى أن هُزم أمام الأمير شيخ المحمودي ـ الملك المؤيد فيما بعد ـ والتجأ إلىٰ قلعة دمشق، وقاتل منها قتالاً ضارياً، وفي النهاية استسلم بعد أن مُنح الأمان، لكنّه سرعان ما ذبح ليلة ١٦ صفر سنة ٨١٥ هـ ـ أيار سنة ١٤١٢ م في قلعة

(١) النجوم ١٧١/١٢، السلوك ٩٥٩/٣، الضوء اللامع ١٦٨/٦ نزهة النفوس أول الجزء الثاني، إنباء الغمر ٥١/٢.

دمشق، وألقي بجثته من أعلى السور حيث بقيت عاريةً عدّة أيام . . .

وكانت حاشيةُ السُّلطان فرج، يوم استلم الحكم، تضم فئتين، أو حزبين، مختلفين تماماً وهما:

- فئة كبار الأمراء، من أمثال أيْتَمش، وتَغْري بَرْدي وأمثالهما، وكانت تسيطر على الجيش، ومنها معظم الأمراء والنواب، وكان أفرادها من أجناس شتّى من الترك والروم والجراكسة . . .

- وأما الفئةُ الأخرى، فهي فئة الأمراء «الخاصكيّة» كما كانوا يُسمّون، أي الأمراء الخواص، وتضم الأمير يشبك الشعباني وسودُن طاز وغيرهما، وكانت هذه الفئة محدثة النعمة، معظم أفرادها من الشباب، وتتصف بالسّرعة والتّهور والذكاء والحقد، وهي قليلة العدد والأنصار، ومعظم أفرادها من الجراكسة . . .

وكان واضحاً، أن يشبك الشعباني وأنصاره، غير راضين عن وجود الأمراء الكبار مع السّلطان، وكانوا يطمعون في إزاحتهم من الطريق بشتى السبل.

وقد استغلّوا ثقة أيْتَمش بنفسه وبمن معه، فبدؤوا يُخطّطون بمنتهىٰ الدهاء والحزم لتنفيذ مآربهم.

وكان الأمير الكبير، أيْتَمش، يقيم «بالاصْطبل السّلطاني» بالقلعة، تأكيداً لدوره وسلطته.

وفي مطلع العام الجديد ٨٠٢ هـ - ١٣٩٩ م، بدأ تنفيذ المؤامرة، فقد اتفق الأمراء الخاصكية، ووحّدوا صفوفهم، وأعدوا الخطة للانفراد بالسّلطان.

---

(١) الاصطبل السلطاني: قصر فسيح بالقلعة، ويقابله في دمشق اصطبل دار السعادة المخصص لكبار الصفوف، وفي العصر المملوكي، وكما هو واضح كان لفظ اصطبل يعني القصر، وهذه من الكلمات المعرّبة وهي أصلاً حظيرة الخيل.

ونُفذت المؤامرة فعلاً في شهر ربيع الأوّل - تشرين الثاني - عندما أعلم السّلطانُ الناصرُ، الأميرَ أيْتَمش، بأنه قد بلغ الحلم، وأنه يريد أن «يُرشَّد»، فامتثل أيْتَمش، وشهد «الخاصكيّة» أمام القضاة بصحة بلوغ السّلطان، وغادر أيتمش «الاصطبل» ونزل إلى داره على الرغم من تحذير الأمير تغري بردي له من هذه الخطة.

وعندما سيطر الخاصكيَّة على السُّلطان، اشتبكوا مع كبار الأمراء في معارك طاحنة في دروب القاهرة المؤدية إلى القلعة، وقد انتهت هذه المعارك بهزيمة أيْتَمش ومن معه، وفرارهم إلى الشام، وبذلك أصبحَ يَشْبك الشعباني، وسودن طاز، هما الحاكمان الفعليان في مصر.

وفي دمشق، كان الأمير «تَنَم» على علم تام بما يجري في القاهرة، فلم يضيّع الوقت، وتجاهل منذ البداية الامتثال لمراسيم السّلطان، على اعتبار أنها صادرة عن الأمير يشبك، فأعلن تمرده في شهر شوال، أي في الشهر نفسه الذي توفي فيه السّلطان برقوق[١]، ثم بدأ يُمهّد للسّيطرة على جميع نيابات الشّام، إلى أن تمّ له ذلك، وأصبح السيّد المطاع في الشام، وهكذا انقسمت البلاد قسمين، في الوقت الذي كانت تتواتر فيه الأخبار عن عزم تيمورلنك على دخول الشام[٢].

وفي الفتن الداخلية، لا يكمنُ الخطرُ عادةً في انهزام أحد الفريقين، وإنّما فيما يتبع ذلك من ملاحقة من يُشتبه بأنهم كانوا من أنصار المهزوم، أو أن هواهم معه، وهذا ما حصل في مصر، إذِ اعتُقل عدد كبير من الأمراء والقادة والموظفين، لمجرد الشبهة، وهكذا وقع الفشل في الصفوف، في الوقت الذي كان العدوّ فيه على الأبواب . . .

---

(١) السلوك ٣/٩٦٧، والنجوم ١٢/١٧٦.

(٢) النجوم ١٢/١٨٣ وفيه أوسع التفصيلات عن تلك الفتن، وانظر أيضاً إنباء الغمر ٢/٩٤ - ٩٦.

وقد التفت أمراء مصر، لمعالجة تمرّد نائب الشّام فحاولوا إرضاءه بشتّى الوسَائل، وفوّضوا إليه حكم الشام جميعه، وأطلقـوا يده في التصرّف، لكنه كان يرنو بأبصاره نحو كرسي الحكم في القاهرة، فتابع استعداداته، وحشر قواته، واستبشر بانضمام أيْتَمش وحزبه إليه، وأحكم قبضته على جميع بلاد الشام.

ثم غادر دمشق، في التاسع من رجب، آذار، ٨٠٢ هـ ١٤٠٠ م واتّجه إلى القاهرة، وبالمقابل غادر أمراء مصر القاهرة، بصحبة السلطان باتجاه دمشق.

والتقتْ طلائع الجيشين عند تلّ العُجول، قُرب غزة، فانهزمت طليعة تنم، وهرب قادتها إلى السُّلطان الذي استولى على غزة، وتقوى بما تركهُ فيها تنم من عتاد وذخيرة.

ولم يتراجع تنم، رغم ما حصل، لكثرة جيوشه، وثقته بالنصر، ومع ذلك، أرسل السلطان قاضي القضـاة الشافعي، صـدر الـدين المناوي إليه، في محاولة لإصلاح ذات البين، وقد حذره القاضي من مغبّة عمله، وأطلق يده في الشام، وذكّره بخطر تيمورلنك، وضرورة توحيد الصفوف لملاقاته، لكنه ركب رأسه، وأبىٰ إلّا الحرب، وهكذا كان اللقاء يوم السبت ٢٣ رجب. ٢٢ آذار قرب غزة، وانجلت الأمور عن هزيمة سريعة وساحقة لتنم، الذي وقع في اللأسر، وهرب أيْتَمش وتغري بردي وجماعتهما إلى دمشق، فاستقبلهم حكامها بما يليق بهم، وأودعوهم السجن، ودخل السلطان المدينة في شهر شعبان.

وفي أواسط شعبان، ذُبح بقلعة دمشق أربعة عشر أميراً من كبار الأمراء، مُعظمهم في الثلاثينات من العمر، وكان أولهم أيْتمش... وبقي تنم زعيم «التمرّد» ويونس نائب طرابلس، تحت العذاب الأليم، حتى ليلة الرابع من رمضان، حيث خُنقا، بعد أن دَلّا على الأموال التي

كانا يخفيانها، ولم ينجُ من هذه المذبحة، إلا الأمير تغري بردي، بشفاعة أخته ـ شيرين ـ والدة السلطان الناصر.

هذه هي صورة الشّام عشيَّة اجتياح تيمورلنك: السلطـان في الحادية عشرة، يتحكم فيه الأمراء، والبلاد في حالة انحلال تام، بعد أن فني معظم الأمراء الكبار، وتوارى الآخرون عن الأنظار.

ولم يقف الأمرُ عند هذا الحدّ، بل وقع التحاسد والفشل في صفوف من بقي من الأمراء، كل منهم يريـد أن يحوّل الأحـداث لمصلحته[1].

ويذكر المؤرخ ابن تغري بردي أن «نوروز الحافظي» الرجل الثاني في دولة المماليك، بعد يشبك، قال عندما رأىٰ عساكر تيمورلنك وهي تسدّ الأفق:

«لو كان تنم حياً لأعدّ لهذه الجيوش عدتها».

فأجابه، نائبُ دمشق الأمير تغري بردي:

«لو كان تنم حيًّا، لعبر الفرات إلى تيمورلنك، قبل أن يعبر إلى الشام».

وهذا يدلّ على حجم الخسَارة التي لحقت بدولة المماليك نتيجة

(١) عن تلك الحقبة المظلمة من تاريخ المماليك، انظر:
- إنباءُ الغمر ٢/٩٤ـ ١٠٠.
- السلوك ٣/٩٥٩ وما بعد.
- النجُوم ١٢/١٥٢ وما بعد.
- مآثر الإنافة للقلقشندي ٢/١٩١.
- الضوء اللامع ٦/١٦٩.
- الروضة لابن الشحنة ٢/١٩٠، ونزهـة النفوس والأبـدان ٢/٣١ـ ٦٧ وفيه تفصيلات وافية عن الذين ذبحوا بقلعة دمشق.

الانقسامات الداخلية، وذَبْح كبار الأمراء.

ويقول المؤرّخ المذكور أيضاً:

«حدثني فيما بعد، الأمير أَسِنْباي الظاهري الزردكاش (خبير السّلاح)، وكان قد أسره تيمورلنك وحظي عنده، قال: قال لي تيمورلنك ما معناه:

ـ إنه لقي في عمره عساكر كثيرة، لكنه لم يلق مثل عسكر مصر، وعسكر ابن عثمان.

لقد كان عسكر مصر عظيماً، ولكنّه ليس له من يحفظه ويقوم بتدبير شؤونه، لصغر سن السلطان، وعدم معرفة حاشيته بالحروب...»[1].

لقد كان بوسع تيمورلنك الهجوم على الشام قبل سنة ٨٠٣ هـ بوقت طويل، فقد وصلت عساكره إلى الهند، ولكنه كان يتحيّن الفرصة لوفاة برقوق أو خلعه، وقد تم له ما أراد، ولم يبق إلا أن يتحرك نحو الشّام التي كانت كمن وجّه له دعوة علنيةً لاحتلالها، وكان ما كان...

---

(١) النجوم ٢١٧/١٢.

الفصل الخامس

العلاَقَاتُ بيْن تَيْمُورلَنْكَ والمماليكِ

١ ـ العلاقاتُ الأولىٰ:

لم تكن أخبار تيمورلنك بخافيةٍ على السّلطان برقوق، ولا سيّما عند امتداد نفوذه إلى حدود دولة المماليك.

وتعود العلاقات المباشرة الأولى، إلى سنة ٧٨٧ هـ ـ ١٣٨٥ م، عندما بدأ أوّلُ اتصال «رسميّ» بين الرجلين.

فقد أرسل تيمورلنك في شهر شوال ـ تشرين الثاني من ذلك العَام، أولى رسائله ـ المعروفة ـ إلى برقوق على يد رسول خاص، فاستقبل بالقاهرة، وكُتب له الجواب المناسب، ولم يُكشف عن فحوى تلك الرسالة[١]، كما يقولون اليوم.

وفي العَام التالي، وصل رسُل صاحب ماردين، وأخبروا أن تيمورلنك، نازل «تبريز» وهزم صاحبها «أحمد بن أُويس» فكسره، وهرب منه إلى بغداد، ودخل تيمورلنك تبريز وأباد أهلها، وجعل عاليها سافلها.

وقد جهّز ابن أُويس، امرأةً إلى السّلطان برقوق، تخبره بأمر

(١) السلوك ٣/٥٣٧.

تيمورلنك، وتحذّره منه، وتُعلمه بعزمه على العودة إلى بغداد، ومن ثم إلى الشام، وقد وصلت المرأة إلى دمشق، وجهّزها نائبها «بيدمر» إلى السلطان بالقاهرة[1].

وفي العام الجديد ٧٨٩ هـ ـ ١٣٨٧ م، ورد البريد إلى القاهرة، بأن تيمورلنك، قد كسر «قرا محمد» صاحب «آمد» وأنه نزل على المدينة، وفرّ قرا محمد من وجهه.

فاستدعى السّلطان القضاة والفقهاء والأمراء، وتحدث في أخذ الأوقاف من الأراضي الخراجية، فكثر النزاع، وآل الأمر إلى أخذ متحصل الأوقاف لمدة سنة واحدة.

وقرر السّلطان إرسال «تجريدةٍ» تضم عدداً من كبار الأمراء، وثلاثمائة جندي إلى بلاد الشام «لكشف الأخبار»، وهي عادة يتبعها المماليك دائماً قبل تحرك الجيش، أملاً في انسحاب العدو، أو زوال الخطر، تخلّصاً من النفقات الباهظة التي يتوجب إنفاقها على الجيش، قبل تحركه[2].

وفي الوقت نفسِه، أرسل نائب الشام رجلاً اتهم بأنه «جاسوس» لتيمورلنْك، وقد اعترف بعد الضرب الأليم، أن معه ثلاثة آخرين، فأُحضروا إلى القاهرة.

وهذا يعني أنَّ تيمورلنك كان يطمع في بلاد الشّام قبل دخولها بأكثر من أربعة عشر عاماً...

وتوالت تحرشات تيمورلنْك في العام المذكور ٧٨٩ هـ، بدولة المماليك، وتكاثرت الإشاعات بقربه من الحدود المملوكية، وأنه ربما تجاوزها، وأنّ معه أعداداً كبيرةً من «التتار والكرج والأرمن والمجوس»،

(١) إنباء الغمر ٣١٢/١.

(٢) السلوك ٥٦٤/٣، وإنباء الغمر ٣٣٥/١ وابن الفرات ١٠/١/٩.

وقد نقل هذه الأخبار رسل السلطان برقوق وجواسيسه الذين كانوا منتشرين في مناطق الحدود.

وفي عام ٧٩٠ هـ ـ ١٣٨٨ م، حصل أوّل صدام مسلّح بين المماليك، وجنود تيمورلنْك، الذين كان يسميهم مؤرخو الشام ومصر بالتتار، وتفصيل ذلك أن التركمان في سيواس استنجدوا بتيمورلنْك لمقاومة هجوم مملوكي عليهم، وقد انهزم جنود تيمورلنك، وكانوا في أكثر من عشرة آلاف، بينما لم يكن المماليك يتجاوزون الألف، وكانوا تحت قيادة نائب حلب، يلبغا الناصري[1]. وهذه المعركة، تؤكد ما ذهبنا إليه من أن المماليك من أشد المقاتلين، إذا توفرت لهم القيادة الحكيمة.

وانتهت حوادث ذلك العام، بعودة تيمورلنْك إلى بلاده، فاغتنم قرا محمّد ذلك، وانقضّ على تبريز واستخلصها من تيمورلنْك، ولم يكتف بذلك بل خطب فيها للسّلطان برقوق، وكتب اسمه على السكّة، وأرسل إليه الدراهم، ففرح السلطان[2].

وسوف نرى، أنّ تيمورلنْك، من النوع الذي لا يقبل التحدي ولا ينسىٰ الإسَاءة قط، وهو ما جَعلهُ يوطّد العزم على اجتياح بلاد الشام، وجعل السُّلطان برقوق لا يطمئن إليه أبداً، ويعامله بمنتهىٰ الازدراء وكان يردد دائماً:

«لا أخاف من (اللنك) فإن الجميع سيساعدونني عليه، وإنما أخاف من ابن عثمان».

وكان ابن خلدون كثيراً ما يقول:

(١) إنباء الغمر ٣٤٧/١.

(٢) المصدر السابق ٣٤٩/١.

«ما يُخشى على ملك مصر إلا من ابن عثمان»[1] وقد تحقق هذا بالفعل بعد أكثر من قرن. . .

ومرّت السنوات الخمس التالية، هادئة، إلى أن تفجّر الموقف فجأة في عام ٧٩٥ هـ ـ ١٣٩٣ م، على أثر اجتياح تيمورلنك لبغداد.

ففي شوال ـ آب، وصلت الأخبار إلى القاهرة باحتلال تيمورلنْك لشيراز، ومقتل أميرها شاه منصور، وانضمام السلطان أحمد بن أويس، سُلطان بغداد، إلى تيمورلنك وضرب السكة باسمه[2].

وفي الشهر نفسه، قدم رسول صاحب ماردين ـ مجد الدين عيسى ـ إلى القاهرة، وأخبر بسقوط تبريز أيضاً بيد تيمورلنك، وأن سيّده، استدعي إلى تيمورلنك، فتعلّل واعتذر بمشاورة سُلطان مصر، فلم يقبل منه، وقال له:

«ليس لصاحب مصر عليكم حكم، ولأسلافكم دهرٌ بهذا الإقليم»، وأرسل إليه الخلعة والسكّة، على العادة[3].

ودخل تيمورلنْك بغداد يوم السّبت ٢١ شوال ـ ٣١ آب على الرغم من طاعة ابن أويس، واستباحَ المدينة، وفرض عليها غرامة، قدرت بـ ١٣٥ مليون درهم، بعد أن أذاق أهلها صنوف العذاب، وشواهم على النار، وسقاهم الماء والملح، ثم قتل منهم مقتلةً عظيمةً وأقام الأبراج البشريّة، رعايةً لحرمته، ثم انتقل إلى مدينة «الحلّة» وكرر فيها ما فعله في بغداد، حتى كاد يأتي على أهلها جميعاً.

وقد شجّعه استسلام بغداد، على إرسال جنوده إلى البصرة، بقيادة

(١) المصدر السابق ١/٤٩٢.

(٢) ابن الفرات ٩/٣٤٣، السلوك ٣/٧٨٨، ابن قاضي شهبة ١/٣/٥٠٣.

(٣) السلوك ٣/٧٨٨.

ابنه والسلطان محمود خان، الحاكم الاسمي في دولته، فتصدّى لهم الأمير صالح بن جولان، وأبادهم، ووقع ابن تيمورلنْك في الأسْر.

فطلب تيمورلنْك ابنه، فلم يلتفت إليه الأمير صَالح، فاغتاظ وسيّر حملة أخرى في البر والنهر، فانقض العرب عليها، وقتلوا وأسروا، وأغرقوا المراكب، وعاد من بقي منها إلى تيمُورلنك بخفّي حنين، فلم يحاول بعدها إرسال أيّ حملةٍ إلى البصرة.

وبعد سُقوط بغداد، قرّر السُّلطان برقوق، إعداد العدة لمجابهة تيمورلنك، فأرسل إلى نائب دمشق، كتاباً يذكر فيه ما حل ببغداد، ويأمر الناس بالاستعداد لقتال الباغي تيمورلنك، إذا ما حاول عبور الفرات، فقرىء الكتاب بدار السعادة[1]، ثم قرىء بالجامع الأموي، بحضرة القضاة والعلماء الذين داروا بعد ذلك على أحياء المدينة وهم يقرؤون الكتاب، ويحذرون من غدر تيمورلنك.

وفي الوقت نفسه، وجّه السلطان كتاباً مماثلاً من القاهرة إلى جميع مدن مصر، وأمر جميع القادة والجنود بالاستعداد للسفر معه إلى الشام[2].

وتوالت الأحداث بسرعة، عندما وصل إلى الرحبة، رسلٌ من لدن تيمورلنك، ومعهم الخلع والهدايا إلى صاحب الرحبة، وأمْر من تيمورلنك بضرب السكّة باسمه، وقد رفض نائبُ الرحبة استقبالهم، وأهانهم، ثم طلب كبيرهم، فأدّى الرسَالة باستكبار شديد، فأمر بضرب

(١) كانت محل جامع الحميدية اليوم، وكانت مركزاً للحكم في عصر المماليك، وقد بناها الملك الأمجد الأيوبي صاحب بعلبك، وكان يقابلها «اصطبل دار السعادة» وهو قصر متسع كان معداً لسكن كبار الضيوف في العصر المملوكي» انظر كتابنا: «دمشق بين عهد المماليك والعثمانيين»، ص ٥٥.

(٢) ابن صصرى /١٤٤ ـ ١٤٥، وابن قاضي شهبة ١/٤٧٨.

أعناقهم، وكانوا في حدود أربعين رجلًا، وأبقى على واحد منهم، أرسله مع الخلع إلى القاهرة.

وكانت هذه الحادثة، أكبر صفعة يتلقَّاها تيمورلنك، وهي التي دفعته فيما بعد إلى الانتقام الوحشي من حلب وحماة ودمشق، لكنه أجّل انتقامه ثمانية أعوام كاملة، ولم تستطع هذه الأعوام أن تمحو من ذاكرته أثر هذه الصفعة، لأنه من النوع الحاقد الذي لا يغفر أبداً[1].

وبعد ذلك تلقّى صفعةً أُخرى، عندما قرّر السُّلطان برقوق، استقبال السّلطان الهارب أحمد بن أويس رسمياً في دولة المماليك.

ففي ذي القعدة سنة ٧٩٥ هـ - أيلول سنة ١٣٩٣ م، قدم البريد إلى القاهرة، بنزول ابن أويس على الرحبة، ومعه حوالي ثلاثمائة فارس، وهو يطلب «اللجوء السياسي»، فأوعز السّلطان إلى نائب حلب باستقباله رسمياً والمبالغة في إكرامه.

ووصلَ إلى حلَب، وطلب الإذن بالقدوم على السُّلطان، فجمع السّلطان أمراءه وشاورهم في الأمر، فاستقر الرأي على قدومه، وأرسل أحد كبار الأمراء لاستقباله.

وقد دخل ابن أُويس، ومن معه، دمشقَ، في شهر صفر، كانون الأول، ونزلوا بالقصر الأبلق، وكان معه خمسمائة من اتباعه، ويقول «ابن صصرى» الذي عاصرهم:

«إنهم مفسدون حشّاشُون، لأنهم عندما وصلوا إلى القدس، اشتروا حشيشاً بألف ومائتي درهم، وتحرشوا بالناس، ولم يصلّوا...»[2].

(١) ابن قاضي شهبة ١/٣/٤٧٩، ابن صصرى /١٤٤-١٤٥.

(٢) ابن صصرى/١٤٦.

ثم وصل أحمد بن أويس إلى القاهرة، في شهر ربيع الأول كانون الثاني، فاستقبله السّلطان برقوق استقبال الملوك وبالغ في الحفاوة به وبمن معه، وعانقه، وهدّأ من روعه، ووعده بإعادته إلى عرشه، وقدم له الهدايا والأموال، وأنزله في قصر أُعد له على «بركة الفيل»[1].

ولم يكن السّلطان برقوق بالذي يجهل ما تنطوي عليه أعماله تلك، لأنّه يعلم تماماً أنّ جواسيس تيمورلنك، سينقلون له كل شيء، وهو ما كان يريده تماماً... إن هذه الفعال من برقوق لم يكن لها إلا معنى واحد وهو الحرب مع تيمورلنْك.

لكن المشكلة كانت تكمن في تيمورلنك، الذي كان أدهى من أن يساق إلى معركة لم يحدّد زمانها ومكانها، لذلك فإنه بدل أن يقبل التحدي، ارتدّ على عقبيه، وعاد إلى أسلوب المراسلات والتجسس، وتفريق الكلمة، أملاً في كسب الوقت تمهيداً للقاء الحاسم، ولا شك أنه كان من أذكى القادة الذين عرفهم التاريخ، لكنه بالتأكيد لم يكن من أشجعهم. ودخلت السنة الجديدة سنة ٧٩٦ هـ - ١٣٩٤ م، فكانت سنة حافلةً بالأحداث.

ففي مستهل السنة، قدم البريد إلى القاهـرة، بحضور رسل تيمورلنك، للمرة الثانية، إلى حدود المملكة، فكتب السلطان بقتلهم فقتلوا، وأُرسلت الهدايا إلى القاهرة، فإذا من ضمنها تسعة مماليك أرقاء، وتسع جوار، وكانوا كلهم من العرب الأحرار إلا واحداً، وكان من

(١) بركة الفيل: بين باب زويلة والسيدة نفيسة ودرب الجماميز، كانت منتزه القاهرة الرائع، وكانت محاطة بالقصور والرياحين (الخطط التوفيقية ١/٣٧). وعن دخول ابن أويس القاهرة ثم عودته لعرشه انظر: السلوك ٣/٧٨٩، وبدائع الزهور ١/٣٠١، وإنباء الغمر ١/٤٦٩ و ٤٧٥، و ٤٧٦، ومآثر الإنافة ٢/١٩٠ وابن الفرات ٩/٣٤٥-٣٤٩، وابن قاضي شبهة ١/٣/٤٧٤ ونزهة النفوس ١/٣٧٦ والنجوم ١٢/٤٤.

ضمنهم ابن وزير بغداد، وابن قاضيها، وابن مُحتسبها. . . فأطلقهم السلطان برقوق في الحال، وعينهم في الوظائف المناسبة، ولم يكن الأمر بحاجة إلى ذكاء شديد، حتى يدرك الناس والسّلطان الهدف الذي رمىٰ إليه تيمورلنـك بهديته تلك. . . وأسلوبه هذا أسلوب التحرش والاستفزاز والتلميح والترغيب والترهيب، هو الذي سار عليه طوال حياته، ولم يكن يتقن أبداً أسلوب المواجهة الصريحة الشاملة.

وفي شهر صفر ـ كانون الأول، أُدخل إلى القاهرة أحدُ أعوان تيمورلنك ويُدعى «دولات خجا» وعُرض على السلطان فلم يعترف بشيء، فتسلّمه والي القاهرة[1]، وجرَّب معه بعض أساليبه، فاعترف بأنّ في القاهرة عشرة جواسيس، أمكن إلقاء القبض على سبعة منهم، وكانوا جميعاً من العجم في زي تجار وطلبة علم[2]، وكانوا يقيمون في «فندق الخليلي»[3].

وفي الوقت نفسه، خاضت طليعة من مقاتلي المماليك في حلب، بقيادة نائبها، معركةً حاسمةً ضد جنود تيمورلنك، حيث عبر المماليك الفرات إلى الرها، فتصدىٰ لهم «التتار» كما كانوا يسمون، بالنشاب، ورموا عليهم أكثر من مائة ألف سهم، وهذا هو أسلوبهم دائماً: كثافة بشرية، وكثافة في الرمي، وكان المماليك قد خبروا هذا الأسلوب من المعارك السابقة، فاحتموا بخيولهم، إلى أن فني النشاب، ثم انقضوا

(١) الوالي في العصر المملوكي، هو صاحب الشرطة.

(٢) السلوك ٧٩٧/٣ و ٨٠٢، وابن الفرات ٣٦٩/٩. وابن قاضي شهبة، ٥٠٦/٣/١، ونزهة النفوس ٣٧٣/١.

(٣) فندق الخليلي، ويعرف اليوم بخان الخليلي، بناه وزير برقوق جركس الخليـلي الذي قتل على أبواب دمشق في «فتنة الناصري ومنطاش» سنة ٧٩١ هـ، وكان من أخلص الأمراء لبرقوق، وأكثرهم حباً في الخير والعمران.

عليهم، فقتلوا عدداً كبيراً منهم، وأسروا آخرين. وفرّ الباقون وقد أُرسل إلى القاهرة مائتان وأربعون رأساً، وجماعة من الأسْرى[1].

وقد أفاد الأسرىٰ، كما أفاد دولات خجا من قبل، أنّه ليس لدى تيمورلنك إلا عشرون ألفاً إلى ثلاثين ألفاً من الجنود المدربين الأشدّاء، والباقي أوباش، وهمج، لا طاقة لهم بالحروب.

ولم يكن لذلك صحة ألبتة، وإنما كان ذلك واحداً من أساليب التضليل التيموريّة، التي يمكن أن تسمى بلغة اليوم «الحرب النفسية»، وهي التي أتقنها تيمورلنك تماماً، وبرزت فيها مواهبه الحقيقية.

٢ ـ العلاقات بين تيمُورلنك وبَرقُوق:

في أوائل عام ٧٩٦ هـ ـ ١٣٩٤ م، وصلت إلى القاهرة رسالة من تيمورلنك، سنأتي على أهمّ ما فيها، لمعرفةِ نوايا الرجل، وطريقة تفكيره.

وقد بدأها بالتهديد والوعيد، بل إنها كانت قريبة الشبه برسالة هولاكو إلى الخليفة المستعصم.

وقد وصف نفسه وجنوده بأنّهم «لا يرقّون لشاكٍ ولا يرحمون الباكي، قد نزع الله الرحمة من قلوبهم، والويل ثم الويل لمن لم يكن من حزبهم».

ثم يتباهى بأعماله التدميرية، والبلاد التي جعل عاليها سافلها، وبالأرامل والأيتام الذين خلفهم وراءه، وخاطب المماليك قائلاً:

(١) ابن الفرات ٣٧٠/٩، السلوك ٨٠٢/٩. وابن قاضي شهبة ٥٠٧/٣/١.

«وأنتم إن أطعتم أمرنا، وقبلتم شرطنا، فلكم مالنا، وعليكم ما علينا، وإن خالفتم... فلا تلوموا إلا أنفسكم».

ثم يتحول إلى واعظ فيقول:

«وكيف يُسمع دعاؤكم، وقد أكلتم الحرام، وضيَّعتم جميع الأنام، وأخذتم أموال الأيتام، وقبلتم الرشوة من الحكام، فأعددتم لكم النار، وبئس المصير، ... وقد قتلتم العلمَاء، وعصيتم رب الأرض والسماء، وأرَقْتم دماء الأشراف...

وقد غلب عندكم أننا كفرة، وثبت عندنا أنكم أنتم الكفرة الفجرة، وقد سلَّطنا عليكم إلٰه له أمور مقدّرة، وأحكام مدبَّرة، ونحن ملكنا الأرض شرقاً وغرباً وقد أوضحنا لكم الخطاب، فأسرعوا بردّ الجواب... وقد أنصفناكم إذ راسلناكم، فلا تقتلوا المرسلين، كما فعلتم بالأولين، وتعصوا رب العَالمين»[1].

وقد عهد السُّلطان برقوق إلى كاتب السرّ ابن فضل الله العمري، بكتابة الرد، الذي وصفه ابن حَجَر بأنه كلام ركيك ملفَّق، غير منتظم، ومع ذلك، راج على أهل الدولة، وقُرىء بحضرة السلطان والأمراء، فكان له عندهم وقع عظيم... حتى إنهم كانوا يقرؤونه في المجالس، واستمروا علىٰ ذلك وقتاً طويلاً...

وسنقطف منه فقرات، تُبيِّن وجهة نظر المماليك.

بسم الله الرحمن الرحيم.

«حصل الوقوف على ألفاظكم الكفرية، ونزعاتكم الشّيطانيّة، ... ففي كل كتاب لُعنتم...، وعندنا خبركم من حين خرجتم، أنكم كفرة... ونحن المؤمنون حقاً لأن القرآن علينا نزل...

(١) النص الكامل في السلوك ٣/٨٠٥، وانظر النجوم ١٢/٥٠ وإنباء الغمر ١/٤٧٣ - ٤٧٤، ونزهة النفوس، ١/٣٧٩ وابن قاضي شهبة، وابن الفرات ٩/٣٧١.

وأما قولكم قُلوبنا كالجبال وعددنا كالرمال، فالقصّاب لا يُبالي بكثرة الغنم... فكم من فئة قليلةٍ غلبت فئة كثيرة بإذن الله.

... أبعد أمير المؤمنين، خليفة رب العالمين، تطلبون منا طاعة؟ لا سمع لكم ولا طاعة... وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون»[1].

أما أهمّ ردّ للسلطان برقُوق، فقد كتبه وهو في طريقه إلى دمشق، وقد تناول فيه جميع أوجه الاختلاف مع تيمورلنك، كما أثارها تيمورلنك نفسه، الذي كان قد أرسل إلى برقوق رسائل كثيرة، وكان مع إحداها سيف وتركاش.

وكان مما جاء في ذلك الرد:

١ ـ السيف والتركاش[2]**:**

وأما إرسالك السّيف والتركاش، فقد تعجّبنا منه إلى الغايَة، لأنَّك لم تزل في كتبك تستشهد بتاريخ جنكيز خان وتقتدي به، ولم نسمع في التواريخ، أنهُ أهدي إلى خادم الحرمين الشريفين، سيف ولا تركاش، فإرسالهما منك إلينا، هل هو دليل محبة أم لا؟.

٢ ـ فرار الأمَراء بين البلدين:

وكان تيمُورلنك يطالب بإعادة الفارين إلى مصر إليه، مُستشهدا بحادثة فرار الأمير «دمرداش» المغولي إلى مصر في زمن الناصر محمد، وإعادته إلى قومه، ويبدو أن المحيطين بتيمورلنك لم يَصْدُقوه في معلوماتهم، ولذلك قال برقوق: إنّ الأمير دمرداش لم يعد إلى المغول، وإنما مات في مصر، وإن الأمير «قراسنقر»، لما هرب إلى السلطان

(١) السلوك ٣/٨٠٧، وابن الفرات ٩/٣٧٣.

(٢) التركاش هو جعبة السهام، ويجمعونها على تراكيش.

«أبي سعيد» قطع رأسه وأرسله إلى الملك الناصر، ثم يقول برقوق:

«وأنت آويت «شَكَر أحمد، وأَرْغون السّلامي، وأكرمتهما. . .».

٣ ـ مذابح بغداد:

وكان مما ادعاه تيمورلنْك، أنه أَدّبَ، صاحب تكريت، ونكل به لأنّه كان لصّاً حرامياً، فردّ عليه برقوق، وشكره على تأديبه، ثم قال بتهكّم:

«هل كان أهل بغداد لصوصاً وحرامية حتى فعلتَ بهم ما فعلت، وقتلت منهم من التجار ثمانمائة تحت التعذيب، فكيف تفعل بالمسْلمين ذلك؟.

٤ ـ تدخل تيمورلنْك في أمور السلطان:

وقد تظاهر تيمورلنك برغبته في فتح باب المودّة مع السلطان فردَّ عليه بقوله:

«لو كنتَ صادقاً لأعدت الفارين إليك، وآخرهم، أمير العرب، صولة بن حيَّار، لكنك آويتَهُ، وأرسلت خلعة للأمير نعير، وحرّضتَهُ على اللجوء إليك. . .

٥ ـ السلطان أحمد بن أويس:

ثم يقول السلطان برقوق:

«ماذا عمل لك السّلطان أحمـد؟ ولماذا تريده؟ لقد حلفت له بجميع الأيمَان، أنك لن تتعرض لبلاده، فركن إليك، ووثق بك، واعتمد عليك، فخُنته وغدرت به، وأتيتَه بغتةً، فأخذت مملكته وبلاده، وأخذت حريَمه، وأعطيتهنّ لغيره، فكيف تدعي أنك مسلم؟.

وما كفى ما فعلته به، حتى تطلبُه منّا، وقد استجار بنا وقَصَدَنا، كيف نفعل ذلك خصوصاً وجنسنا «جركس»، جنس ملوك الإسلام

السالفين، خدام الحرمين الشريفين الذين اتفق لهم مع التتار ما تعرفه[١]، ومن عادتنا ألاّ نسلّم ضيفنا، ولا نزيلنا، ولا من استجار بنا، وعندك من جنسنا فاسأله.

٦ ـ الصُلْحُ:

وأما تهديدك بأنك ستقصد بلادنا في أول فصل الربيع، إن لم نسلّم إليك السلطان أحمد، فهو متأخر كثيراً، لأننا ننتظرك بفارغ الصبر، فإن كنت تُريده، فعيّن لنا مكاناً نأتيك إليه، حتى نتزاور ونصطلح، ونحن نطلب أن تُشفّعنا في السلطان أحمد، فعيّن لنا المكان الذي تريده، ونحن بانتظارك.

٧ ـ سوء أدب الرسل:

أما الرسل فقد قتلناهم، لأنهم كانوا يكتبون المنازل، منزلةً منزلةً إلى بلادنا المحروسة، وقد تأكدنا من ذلك، وعندما وصل كبيرهم إلى الرحبة قال للنائب:

«قبّل الأرض للأمير تيمور، واقرأ الخطبة باسمه» فلو كان رسولاً مُصلحاً، ما كتب المنازل، ولا أكثر فضوله وتحدث بما لا ينبغي له، وكيف يمكن لنائبنا أن يُقبّل الأرض لغيرنا، أو يخطب بغير اسمنا، نحن خدام الحرمين الشريفين.؟

لقد تكررتْ منك الفعال القبيحة. . .

٨ ـ التهديد والوعيد:

ويقول برقوق:

وأما قولك إنّ هولاكو أخذ من كل مائة رجل رجلين، وجاء بهم،

---

(١) يشير إلى المنصور قلاوون الذي هزم التتار في حمص ٦٨٠ هـ.

وأنت قد جئت بالرجلين والمائة فقد علمناه، واعتمادنا على الله. . . ولم ينتصر مُلوك التتار على ملوك الإسلام خدام الحرمين الشريفين.

وأما تهديدك بخراب ديارنا، فستعلم ديار من تخرب، وها نحن واصلون بالجيوش والعساكر، والجواب ما ترىٰ، لا ما تسمع، والله الموفق»[1].

وبالفعل، تحرك السُّلطان بالجيوش، وغادر القاهرة في ربيع الآخر ـ شباط، في حملة ضخمة ضمّت أكثر من ١٥٠,٠٠٠ جمل وفرس بالإضافة إلى كامل التجهيزات العسكرية التي لم يُسمع بمثلها، حتى إنه أخذ معه ـ كما يقول المقريزي ـ خمسة قناطير من العاج لصنع الشطرنج، لأن السلطان لا يلعب بالشطرنج الواحد أكثر من مرة واحدة. . .[2].

ودخل السلطان دمشق في جمادى الأولىٰ، وهناك التقى بسفراء مملكتين جمعهما وإياه، كره تيمورلنك، والرغبة في التخلص منْه، وهما رسول ملك القبجاق «طَقْتَمش» ورسول السّلطان العثماني بايزيد، وقد عرضا التحالف ضد تيمورلنك فشكرهما السّلطان، وزوّدهما بالأجوبة المناسبة[3].

وفي شوال ـ تموز، تحرك السلطان إلى حلب، وتبعه أحمد بن أويس الذي توجّه إلى بغداد عن طريق القريتين والبادية، بعد أن قدم له السّلطان مساعداتٍ فاقت الحصر. . .

ودخل ابن أويس بغداد ظافراً، بعد أن انسحب تيمورلنك نحو الشرق.

(١) النص الكامل في صبح الأعشى للقلقشندي ٣٠٨/٧ ـ ٣١٨.
(٢) السلوك ٨١٢/٣، ابن قاض شهبة ٥١١/١ وابن الفرات ٣٧١/٩ و ٣٨٢.
(٣) إنباء الغمر ٤٣١/١، ونُزهة النفوس ١٨٧/١، وابن قاضي شهبة ٥١٢/١، والنجوم الزاهرة ٢٦/١٢.

وقد كان السُّلطان شديد الرغبة في لقائه، لكنه كان يروغ كما يروغ الثعلب، عندما أدرك أنّ استعدادات المماليك كاملة، ورغبة السّلطان في لقائه أكيدة، فولّى الأدبار منتظراً الفرصة المناسبة.

وكان القياسُ أن يقبل تيمورلنك التحدّي، ويردّ على برقوق فوراً، عملاً بقواعد الفروسية التي كانت سائدة في الشرق والغرب آنذاك، لكنه لم يفعل، لأنه لم يكن من طراز الفرسان النبلاء، لأن كلمات الشرف والشهامة والشجاعة والمروءة والوفاء وما إليها، لم تكن تعني شيئاً بالنسبة له، وكان همّه منصرفاً إلى شيء واحد، هو استحالة الهزيمة، والعمل على تحقيق النصر بشتى الأساليب، ولو طال الزمن.

ولذلك هرب من وجه السّلطان برقوق، وعاد إلى بلاده، ليمارس هوايته المفضّلة، وهي تشتيت شمل أعدائه وتفريق كلمتهم، والانقضاض عليهم، واحداً بعد الآخر.

أمّا السّلطان برقوق، فقد بقي في حلب يُتابع تحركات غريمه، وقد أرسل إلى القاهرة أنّ السّلطان بايزيد وضع تحت تصرفه مائتي ألف مقاتل، وأنّ صاحب سيواس الذي كان مذبذباً بينه وبين السلطان بايزيد، قد أعلن ولاءه له.

ثم وصل إلى السّلطان الأميرُ ـ طولو على شاه ـ رسولُ «طقتمش خان» الذي أخبره بأن تيمورلنك، قد فاجأ سيّده بهجوم مباغت وهزمه، ثم انسحب إلى بلاده، مما دفع سيده إلى الالتجاء إلى «بلاد الروس»[1].

وعاد السلطان إلى عاصمته في مستهلّ العام الجديد ٧٩٧ هـ الذي انقضى، دون أن يحدث أمر ذو بال مع تيمورلنْك، الذي كان يقيم

(١) ابن الفرات ٤١٦/٩ ونزهة النفوس ٤١٤/١.

في «السلطانية»[1]، على سبيل الراحة والاستجمام. وقد بقيت الأمور هادئة حتى ظهرت قضية أطلمش.

وأطلمش هذا، أمير من أمراء تيمورلنك في مناطق الحدود المملوكيّة، وهو في الوقت نفسه يمت إليه بصلة القربى، وقد أسره صاحب تبريز، الموالي للسلطان برقوق «قرا يوسف»، وذكر أنّه من كبار الأمراء عند تيمورلنك.

وقد وصل أطلمش هذا إلى القاهرة في شهر صفر سنة ٧٩٨ هـ - تشرين الثاني سنة ١٣٩٥ م، فسلّمه السُّلطان إلى الأمير علاء الدين الطبلاوي، حيث أقام عنده «إقامة جبريّة»[2].

وقد أدَّتْ حادثة أَسْره، إلى تدهور العلاقات بين الطرفين، وشغل موضوعه كلاً من تيمورلنْك والسلطان برقوق، والسّلطان فرج، ما ينوف على خمسة أعوام...

ويقول «ابن حَجَر العسقلاني»: إن أسر أطلمش كان سبباً في دخول تيمورلنْك إلى الشّام، وقد تبنّى هذا الرأيّ عدد ممن كتب عن تيمورلنك، مثل العلاّمة محمّد كرد علي صاحب خطط الشام الذي قال:

«هذا الرجل - يعني «تيمورلنْك» - لم يحمل على الشّام حملته المشؤومة إلا لأسباب أوجدها النواب والأمراء، وبعد أن ردّد مقالة ابن حجر قال:

«فالقائمون بالأمر هم الذين فتحوا لتيمورلنك السبيل لغزو البلاد، فيما بعد»[3].

(١) مدينة أنشأها خلفاء هولاكو سنة ٧١٣ هـ سنة ١٣١٣ م قريباً من تبريز ثم تلاشى أمرها.

(٢) ابن الفرات ٩/٤١٦، والسّلوك ٣/٨٥١، وإنباء الغمر ١/٥٠٩.

(٣) خطط الشام ٢/١٦٢ - ١٦٣.

والسؤال الذي يفرض نفسه: إذا كان أسر أطلمش هو السبب في دخول تيمورلنك، فلماذا تأخّر دخوله خمس سنوات كاملة؟ ثم ماذا جنت الصين والهندُ والدولة العثمانية وغيرها من البلدان التي ابتليت بتيمورلنْك، هل أُسِرَ له فيها أقرباء مثل أطلمش أيضاً؟.

إن حجة تيمورلنك في احتلال الشام لم تكن أقوىٰ من حجة فرنسا يوم احتلّتْ الجزائر، أو الشّام، لأن أطماع تيمورلنك في الشام كانت قديمة، وجراحاته من الشام لم تكن قد التأمت بعد.

والمهمّ، أن تيمورلنْك، وجد سبباً، لإثارة العلاقات مع المماليك، وبالتالي الهجوم بعد ذلك.

فقد أرسل في مستهل عام ٧٩٩ هـ - ١٣٩٦ م وفداً إلى السلطان برقوق، يُطالبه بإطلاق سراح «أطْلمش»، ولكن السّلطان تجاهل طلبه هذا، وأرغم «أطلمش» على أن يعبر لتيمورلنك عن «سروره» بالإقامة في مصر، وقال له: إن أطلقت من قبلك، أُطلقُ مَن قِبَلي[1].

ولم يكتف تيمورلنك بالرسل، بل بدأ يتحرش بحدود المماليك، أو حلفائهم.

ففي شوال من العام المذكور، حزيران ١٣٩٧ م، أغَار على بلاد التركمان الموالين للمماليك، وأعاد إلى ماردين ملكها الظاهر مجد الدين عيسى، بعد أن حلّفه على الطاعة له، لكن هذا ما لبث أن تجاهل تيمورلنْك، وخطب للسلطان برقوق، وضرب السكة باسمه، فشكره السّلطان وكتب له «تقليداً» بنيابة ماردين، فازداد تيمورلنك غيظاً على غيظه، ولكنه لم يحرّك ساكناً إلى أن جاءته المقادير على النحو الذي يريد.

(١) السلوك ٣/٨٦٩، إنباء الغمر ١/٥٢٢.

فقد مات السّلطان برقُوق، عدوه اللدود، فأعطى تيمورلنك لمن بشّره بموته ألف دينار. . .

ثم تفجرت الخلافات في دولة المماليك، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، ولتدفع بلاد الشام عامة، ودمشق وحلب خاصة، حساب القرون الخوالي، ولتعيش أياماً تذكر بأيام عاد وثمود، ولله في خلقه شؤون.

٣ ـ الأيّام التي سَبَقَت الكَارِثَة:

في ١٥ شوال سنة ٨٠٠ هـ ـ حزيران سنة ١٣٩٨ م، احتفل السُّلطان برقوق «بختان» ابنه فرج، وبعد عام واحد، أصبح هذا الولد سلطاناً علىٰ مصر والشّام، وألقت به المقادير أمام تيمورلنك، الذي جاوز السبعين عاماً، وقضى خمسين عاماً من عمره يمارس فنون الحرب والقتال.

وكان مطلوباً من هذا «السّلطان الصبي» ذي الأحد عشر ربيعاً، أن يقود دَولة المماليك في وجه تيمورلنك بخبرته ومكره ودهائه، ولذلك فمن غير المعقول أن يتحمّل هذا السلطان مسؤولية أمورٍ وأحداثٍ، كانت فوق طاقته. . .

وفي الهزائم عادةً، يبحثون عن كبش فداء، يُحمّلونَهُ مسؤولية الهزيمة كاملةً، ويُريحون أنفسهم، وفي ذلك الوقت لم يجدوا غير «الناصر فرج» ليكون كبش الفداء.

ويروي المؤرخ «يوسف بن تغري بردي» عن السّلطان فرج، أنه جلس يوم (شم النسيم) مع مماليكه، وشرب معهم حتى لعبت به الخمرة، فألقى بنفسه في «فُسْقيَّة» ماء، وألقى الأمراء بأنفسهم خلفه، وصار يسبح معهم ويُمازحهم، وترك الوقار، فجاء من خلفه الأمير أزبك

وأغمّه في الماء مراراً، وأراد تغريقه، ففطن به بعض مماليكه، وخلّصه منه، فقال السلطان:

«كان يلعبُ معي»[١].

هذا هو سُلطان مصر والشام عشيَّةَ دخول تيمورلنك، فهل يمكن أن يتحمل مسؤُولية ما حدث؟.

ولم يقف الأمر عند خطر تيمورلنك وحْدَه، بل كان ثمة خطر آخر، هو السُّلطان العثماني بايزيد، الذي اغتنم فرصَة وفاة برقوق، وأغار على «الأُبلستين وملطية» وحاصر «دَرَندة»، فاستقر الرأي على التّصدي له، لكن مماليك السُّلطان رفضوا المشاركة في الحملة، والخروج من القاهرة، وقالوا إن المماليك «الكبار» يُريدون إبعادهم عن القاهرة، فاضطرّ السّلطان إلى الاكتفاء بإرسال أحد الأمراء «لكشف الأخبار» كما جرت بذلك عادة المماليك.

وقد أكّد هذا الأمير عندما وصل إلى حلب في المحرم سنة ٨٠٢ هـ، أيلول ـ سنة ١٣٩٩ م أنّ السلطان بايزيد يُحاصر «ملطية» وأنه احتلَّ «سيواس». وأقام عليها ابنه الأمير سلمان، الذي نكّل بأهلها واستباح أموالهم، وأعراضهم. . .

وقد أدّتْ هذه التحركات الرعناء، إلى إنزال الكارثة بكل من دولة المماليك، والعثمانيين على حد سواء. ذلك لأن السّلطان بايزيد، أدرك بعدها أن تيمورلنك يطمع في بلاده، بل إنه هاجم سيواس ودمّرها، فاضطر إلى محاولة التحالف مع المماليك، لكن هؤلاء رفضوا الصلح والتفاهم وقالوا:

«اليومَ صار صاحبُنا، وعندما مات أستاذنا الملك الظاهر، مشى

(١) النجوم الزاهرة ١٢/٣٢٩.

على بلادنا. . . فليقاتل عن بلاده. . . ونحن نقاتل عن بلادنا. . .»[1].

وعلاوةً على ذلك، فإنّهم لم ينسوا قول السلطان برقوق، إنه لا يخشى من تَيمُورلنك بقدر ما يخشى من ابن عثمان، وتأكّد لهم بأنّه على فرض أن التحالف مع العثمانيين قد تمّ وانتصروا على تيمورلنك، فإن السلطان بايزيد، سيضم بلادهم إليه بعد ذلك، لا محالة.

وهكذا أبت المقادير إلا أن تسير لصالح تيمورلنك حتى النهاية.

ومن جهة أخرىٰ، فإنه نظراً لشعور المماليك بعجزهم، وفشلهم، فقد حاولوا إرضَاء تيمورلنك بجميع السبل، أملاً في أن يكف بلاءه عنهم، كما فعل الخليفة العباسي المستعصم مع هولاكو تماماً، وكما فعل الملك «فيصل بن الحسين» مع «الجنرال غورو»، فيما بعد. . .

ففي شـوال سنة ٨٠٢ هـ ـ أيـار سنة ١٤٠٠ م، فَرَّ أحمد ابن أويس، للمرة الثانية، من بغداد، ومعه حليفه التركماني قرا يوسف، وطلبا «اللجوء السياسي» إلى دولة المماليك، فمُنعا من ذلك، وحيلَ بينهمـا وبين حلب، وأرسل المـماليك قـواتهم لمقاومـة ابن أويس وجماعته، لكنها هُزمت[2] شرّ هزيمة ولاذت بحلب. . .

كل ذلك، وتيمورلنْك يتظاهر بعدم المبالاة بما يجري. . .

وهكذا فقد المماليك كلّ شيء، دون أن يظفروا بشيء. . .

- فقد قطعوا أواصر الصداقة مع السّلطان بايزيد، في الوقت الذي كانوا فيه بأمس الحاجة لمساعداته. . .
- وحاربوا ابنَ أُويس وجَماعته واكتسبوا عداءهم.
- وحاربوا قرا يوسف التركماني، فتخلى التركمان عنهم.

---

(١) السلوك ٣/٩٦٥ و ٩٧١ و ٩٧٩ ـ والنجوم ١٢/٢١٦ ـ ٢١٨.

(٢) السلوك ٣/١٢٣، والنجوم ١٢/٢١٥، ونزهة النفوس ٢/٦١.

- وقضوا بأيديهم على رفاق السّلاح فذبحوهم ذبح النعاج بدون رحمة في قلعة دمشق سنة ٨٠١ هـ.
- وألقوا بذور الفتنة بين التركمان والعرب «البدو» ليأمنوا الفريقين، فنجحوا في ذلك، لكن التركمان والعرب وقفوا موقف المتفرج من جيوش تيمورلنْك ومجازره، وهم الذين طالما شاركوا في الدفاع عن بلاد الشام ضد المغول، في معارك عين جالوت وحمص وشقحب، بل إن العرب هم الذين حققوا النصر في معركة حمص ٦٨٠ هـ، بعدما انهزم المماليك.

وكان تيمورلنك، يعرف ذلك جيداً، لذلك تقدم نحو الشام بخطاً ثابتة، وهو مطمئن إلى أن أحداً لن يجرؤ على التصدي له، وهذا ما كان.

وكما جرت العادة، فإنه كان لا بُدّ من وجود أسباب يتذرّع بها لاحتلال الشام، أُسوة بمن سبقه من الغزاة، ومع أنه لم يكن بحاجة لتلك الأعذار، فقد ذكر المؤرخون، أن تيمورلنك ما غزا الشام إلا للأسباب التالية:

١ ـ قتل رسله بالرحبة سنة ٧٩٥ هـ ـ سنة ١٣٩٣ م.
٢ ـ إيواءُ المماليك للسّلطان أحمد بن أويس.
٣ ـ أسرُ «قريبه أطلمش».
٤ ـ تعدّياتُ المماليك على الحدود.
٥ ـ تجبر المماليك، وخروجهم عن جادة الشرع الحنيف ورغبة تيمورلنك بإقامة شعائر الإسلام بنفسه، وعلى طريقته.
٦ ـ تحـالف المماليـك مع عـدوه التقليـدي «طُقْتَمش خـان». ملك القبجاق.

وعلى الرغم من محاربة المماليـك لابن أويس، واستعدادهم

لإعادة أطلمش، فإن تيمورلنك لم يتحوّل عن عزمه لاحتلال الشام، وذلك للأسباب التالية، التي هي، من وجهة نظرنا، الأسباب الحقيقية:

١ ـ طمعُه بمنصب الخلافة الإسلامية.

٢ ـ رغبته في أن يكون حامي الحرمين الشريفين.

٣ ـ حبّه الشديد لبلاده، بلاد ما وراء النهر وبخاصة سمرقند، ورغبته في نقل مركز الخلافة إليها، بدل القاهرة.

٤ ـ حلمُه القديم بأن يصبح سيد العالم.

٥ ـ حقدهُ الشخصي العارم على دولة الماليك، مُمَثّلةُ السنَّة.

٦ ـ ضعفُ دولة المماليك، ولعلّ هذا هو السَّبب الأهم.

وهكذا جاء تيمورلنك إلى الشام، وكأنما كان على موعد.

الفصل السّادس

تيمورلنك يجتَاح شمَال الشام

١ ـ سوء الاستعدادات المملوكيَّة.

٢ ـ تيمورْلنك قادم.

٣ ـ سقوط حلب ومدن الشمال.

١ ـ سوء الاستعدادات المملوكيَّة:

لم تبدأ الاستعداداتُ في القاهرة بصورةٍ جدية إلّا يوم ٢٤ صفر ـ ١٤ تشرين الأول، عندما وصلت كتب دِمِرْداش، وأسَنْبغا الحاجب، تؤكد الأنباء المفزعة المتوالية، ومع ذلك، فإن القرار النهائي لم يصدر إلا بعد شهر.

لقد كان إحساسُ القاهرة بالخطر الداهم من الضآلة، بحيثُ لم تُصدِّق الأخبَار التي كانت تصلُها عن تيمورلنك، ولقد استمر التسويف ثلاثة أشهر كاملة...»[١].

وفي ربيع الأوَّل، وبعد أن احتُفل بالمولد النبوي الشريف، عُلّق في القاهرة «جاليش السّفر»، وذلك لوصول أخبار تفيد بتقدم طليعة تيمورلنْك نحو «بزاعة» واشتباكها مع قوات نائب طرابلس الأمير شيخ المحمودي ـ الملك المؤيد فيما بعد ـ وقد وُسِّط على أبواب حلب أربعةُ من جنود تيمُورلنْك الأسْرىٰ.

وكان الأولى بالسُّلطان الخروج بالعساكر إلى حلب قبل رحيل تيمورلنك عن سيواس، كما فعل الظاهر برقوق[٢].

---

(١) لقاء ابن خلدون /٩٢ و ٩٣.

(٢) النجوم الزاهرة ٢٢١/١٢، والسّلوك ١٠٣٠/٣.

لكن البُرودَ الغريب، وسوء الاستعدادت وتقاعس الأمراء عن القتال، كان فوق التصوّر، ربّما لأنّ الناس لم يخُوضوا حرباً منذ مائة سنة كاملة، أي منذ معركة شقحب ٧٠٢ هـ، ولذلك كان مثلهم كما قال الله تعالى:

(ولو أرادوا الخروج لأعدّوا له عدةً، ولكن كره الله انبعاثهم، فثبّطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين)[1].

وبعد أسبوع من احتفالهم بالمولد وتعليق «جاليش السّفر» فُرِّقت الجمال على مماليك السُّلطان، ونودي على الأجناد، بأن يجتمعوا بعد أربعة أيام في بيت الأمير يشبك الدّوادار، لتفقد أحوالهم.

وبعد أسْبوع آخر، ورد الخبر بسقوط حلب فاعتقل المُخْبر، ووُزّعت الأموال على المماليك استعداداً للسّفر، وأُرسل اثنان «لكشف الأخبار»...

ثم ركب شيخُ الإسْلام سراج الدّين البلقيني والقضاة والأمراء، ونودي بين أيديهم بضرورة استعداد الناس لقتال عدو الله وعدو رسوله وعدو المؤمنين، الباغي تيمورلنك، الذي خرب البلاد، وقتل العباد، وأهلك الحرث والنسل، وهو عازم على دخول دمشق والقاهرة... فازداد قلق الناس وخوفهم وجزعهم، وكثر عويلهم...

وفي أول ربيع الآخر، عاد الأمير «أسنْبغا» الذي كُلّف بكشف الأخبار، فأكد صحّة كل ما قيل عن تيمورلنك، وقال إن الشام في أمر مريج، وإنّ نائب دمشق رفض إخلاءها، والقوم في غاية الاضطراب،... وعند ذلك فقط، تحرك السّلطان ونزل بالريدانية، وتبعه الأمراء والجنود كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون.

(١) سورة التوبة، الآية ٤٧.

ثم نادى نائب الغيبة في جميع أنحَاء مصر، بجمع الأقوياء من الريف، وتجهيز العربات لملاقاة تيمورلنك[1]، كما أخذ يجمع الجمال والخيل لمساعدة الجيش، الذي استقر في «الريدانية» ولم يغادرها.

وفي خامس الشهر، جُدِّد النداءُ على الجند بالحضور للعرض في بيت الأمير تمراز، وهُدِّد من تأخرَ عن الحضور.

وأخيراً، غادر الجيش الريدانيَّة، (العباسية اليوم)، في العاشر من ربيع الآخر، أي بعد شهر كامل من سقوط حلب بيد تيمورلنك...

أمّا في دمشق، فقد نودي في الناس أن يدخلوا إلى المدينة، أي داخل الأسوار، ويستعدوا لمحاربة تيمورلنك، فعظم ضجيجُهم وبكاؤهم، وأخذوا ينتقلون إلى المدينة، واجتمع الأعيَان للنظر في حفظها، ثم همّ نائب[2] الغيبة بالفرار، فردّه العامة، فنادى فيهم بإلقاء السلاح وتسليم المدينة لتيمورلنك، وردَّ عليه نائب القلعة فنادى بالاستعداد للحرب، وعدم الالتفات إلى غير ذلك.

ووردت أخبار تحرك السُّلطان نحو المدينة، فهدأت الأحوال، واستمر تدفق «الوافدين» إلى المدينة، سواء من جهات حلب وحماة وحمص أو من جهات الغوطة وضواحي البلد.

ثم اجتمع أهل المحلات والضواحي بالميدان وحملوا «الصناجق الخليفتية» وشهروا السيوف، ولعبوا بين يدي النائب، ثم انفضّوا، وخرج القضاة ونادوا بالجهاد، وجاء العربان، واشتعلت الحماسة في المدينة، وبلغت القلوب الحناجر، وتضاربت الأخبَار، وعاشت المدينة أياماً عصيبةً، كان فيها كل شيء ينبىء باقتراب العاصفة.

(١) السلوك ٣/١٠٣٥ - ١٠٣٧، والنجوم ١٢/٢٢٨ - ٢٢٩.
(٢) يسير الأمور في غياب النائب.

٢ ـ تَيمُورْلنك قَادِمٌ:

بدأ تحرك تيمورلنك الفعليّ، لاحتلال الشام بمهاجمة «سيواس» واحتلالها في المحرم سنة ٨٠٣ هـ ـ آب سنة ١٤٠٠ م، وبعد أن حلف للمقاتلين فيها أنه لن يريق دماءهم، وأنه سيرعى ذممهم، ربطهم بالحبال، وألقاهم في الأخاديد، ودفنهم أحياءً وهم ينظرون، وكانوا زهاء ثلاثة آلاف، ثم دمّر المدينة وغادرها بعد أن جعلها «قاعاً صفصفاً»، كعادته.

ثم حاصربهسْنا، بعد أن نهب ضواحيها، واحتلَّها، ولكنه خلافاً لعادته لم يدمّرها.

ثم تحول إلى ملطية فعجز عنها، فتجاوزها إلى عينتاب، ففتحها بعد هروب نائبها أَرْكَمَاس، إلى حلب.

وكان نواب الشام قد اجتمعوا في حلب، فأرسل إليهم تيمورلنك رسولاً ومعه كتاب من مضمونه:

«إنا لما وصلنا في العام الماضي إلى بلاد حلب لأخذ القصاص ممّن قتل رسلنا بالرحبة، بلغنا موته (يعني السلطان برقوق) وبلغنا أمر الهند وما هم عليه من الفسَاد، فتوجهنا إليهم، فأظفرنا الله تعالى بهم، ثم بلغنا قلة أدب هذا الصبيّ (يعني سليمان بن بايزيد حاكم سيواس)، فأردنا «عَرْك» أذنه، ففعلنا بسيواس وغيرها من بلاده ما بلغكم أمره.

ونحن نرسل الكتب إلى مصر، فلا يعود جوابها، فَنعلِمُهم أن يُرسلوا قريبنا أَطْلَمش، وإن لم يفعلوا فدماء المسلمين في أعناقهم».

ثم طلب من المماليك الكفَّ عن القتال، والخطبة باسم السّلطان «محمود خان» وباسم الأمير الكبير «تيمور كوركان»، وعيَّر المماليك

الجراكسة بأصلهم ومنزلتهم، وقال إنه هو الحاكم الشرعيّ[١].

وهو بهذا الكتاب يُعبّر عن وجهه الحقيقي، فهو لم يأت لإنقاذ «أَطْلمش» لأنه غادر الشام دون أن يعيده معه، ولم يكن أطلمش هذا غير «قميص عثمان» بالنسبة لتيمورلنك.

ولم يكتف تَيمورلنْك بهذه الرسالة، بل كلّف الرسول أن يُبلغ نائب حلب «دمِرداش» بأنه سيُبقيه في منصبه إن هو اعتقل «سُودُونَ» نائب دمشق، الذي قتل الرسل، وقد أدرك «دمِرداش» خطة تيمورلنْك هذه والهدف الذي يرمي إليه من ورائها، وهو تفريق صفوف المماليك، فوق ما هي متفرقة، فقدم بالرسول على الأمراء وهم نائب دمشق، ونائب طرابلس ونائب حماة، ونائب غزة، وكان هو كبيرهم والمدبر لشؤونهم، وطلب من الرسول إعادة الرسالة. ففعل، وقال لِدمِرداش:

«إن الأمير ـ يعني تيمورلنك ـ لم يأتِ إلا بمكاتبتِك إيَّاه، وأنت تستدعيه أن ينزل على حلب، وأعلمتَه أنه ليس بالبلاد من يدفع عنها».

فحنق دمرداش منه، وضربه، ثم قتله.

وكان قصدُ تيمورلنك، زرع الشكّ في قلوب المماليك حول كبيرهم «دمِرداش»، وقد نجح في ذلك لأنه استطاع النيل من شرف الرجل في أعين قومه ورعيته زمناً طويلاً.

فقد ذكر ابن تغري بردي (المتوفى سنة ٨٧٢ هـ)، أن من «الحلبيّين» جماعة يقولون إلى الآن، أي إلى عصره، إنّ دِمرْداش كاتب تيمورلنك وتقاعس عن القتال[٢].

---

(١) السلوك ٣/١٠٢٩، والنجوم ١٢/٢٢١، وعربشاه ١٢٩، وإنباء الغمر ٢/١٣٣.
(٢) النجوم ١٢/٢٢١.

وهو الشيء نفسه الذي قيل فيما بعد عن جانبردي الغـزالي والسّلطان سليم في مرج دابق، لأن الهزائم كما قلنا، بحاجة لرجل تلقى على عاتقه مسؤوليتها كاملة لذلك وقع الاختيار على دِمـرداش بعد السّلطان ليكون ذلك الرجل، وقد أخذ بهذا القول بعض المؤرخين القدامىٰ والمحدثين، وليس هذا وقت تفصيل أطول.

أما في القاهرة، فإنه عندما وصلت أخبار تيمورلنك إليها، اجتمع العلمَاء والقضاةُ والأمراء، لإصدار فتوى تُجيز أخذ الأموال من الناس للاستعانة بها على الجهاد في سبيل الله، فرفض العلماء إصدار الفتوى وخافوا أن يدعو التجار على الجيش فينهزم.

فقيل لهم: نأخُذ نصفَ الأوقاف نُقطعها للأجناد «البطّالين»[١] فرفض العلمَاء، وقالوا إنه لا يجوز الاعتماد عليهم في الحروب، لأنهم يميلون مع الغالب. وانجلى الموقف أخيراً عن إرسال أحد الأمراء «لكشف الأخبار» كالعادة، فأرسلوا الأمير «أسنْبغا».

وقد اتخذ العُلماء، فتوى الشيخ عزّ الدين بن عبد السلام عشية معركة عين جالوت، مقياساً وقاعدة، لا يحيدون عنها.

وبغضّ النظر عن أي اعتبار، فإن عدم جمع الأموال ساهم في إضعاف الجبهة الداخلية إلى حدّ كبيـر. ويعلّق «فيشيل» على ذلك بقوله «إن السّلطان ومستشاريه في القاهرة، لم يكونوا قد أدركوا بعد، الأخطار المحدقة بحلب ودمشق».

٣ ـ سُقوط حلب

السبت ١١ ربيع الأول ـ ٣١ تشرين الأوّل ١٤٠٠ م:

وفي حلب، اجتمع نواب الشّام والقضاة والفقهاء والأعيان لإعداد خطة لمواجهة تيمورلنك.

(١) تعبير مملوكي، يقصد به الجنود المحالون على التقاعد، بلغة اليوم، أو الذين لا عمل لهم ولا رزق.

ولم يكن ثمة كبير يُلجأ إليه، ويُحترم رأيه، ويُوحِّد الصفوفَ من خلفه، فالسّلطان صغيـر، وهو في مصر، وأمراء مصر أنفسهم غير متّفقين، لا يعرفون ما يفعلون، بل إن الجيش «المصريّ» لم يكن قد تحرك بعد من مصر، وأما نائب حلب، الأمير «دِمِرْداش» الذي كان نظرياً أكبر الأمراء، فإن كلمته لم تكن مسموعة، وكل نائب يُدلي برأيه، دون أن تكون ثمة قوة تستطيع تلمّس الحل الصحيح وفرضه.

فقال بعضُهم: «نُحصِّن البلد، ونَبقى داخلها نقاتل تيمورلنك»، وقال آخرون: «بل نحيط بالبلد ونمنع تيمورلنك من الاقتراب منها».

وقال الأمير شيخ المحمودي نائب طرابلس:

«نُحصّن المدينة، ونعسكر خارجها، ونحفر علينا الخنادق، ثم نرسل وراء الأكراد والعشير والتركمان لمناجزة تيمورلنك، ريثما يصل الجيش»، وكان هذا أفضل الآراء.

وأخيراً نطق دِمِرداش فقال:

«الرأيُ أن نخرج جميعاً لمناجزة تيمورلنك دون إبطاء ونخلي المدينة من سُكانها».

ويعلق ابن عربشاه على ذلك بقوله:

«إن دمرداش كان متواطئاً مع تيمورلنك، حتى جاء بهذا الرأي».

وكان الشطر الآخر من اقتراحه من أفضل الآراء، لو عملوا به، ولكن المشكلة أنّهم عملوا بالشطر الأول، وتجاهلوا الشطر الثاني، فضربوا خيامهم شمال حلب، ولو أن أهل حلب غادروها، لكانت الكارثة أخف وطأة، ولكن هذا ما حصل[١].

(١) عربشاه/١٣١، وإنباء الغمر ٣٥/٢، والروضة لابن الشحنة ١٩١/٢.

وقد قَدَّر المؤرخون قوة المماليك المجتمعين في حلب بحوالي ثلاثة آلاف فارس فقط، كانوا يريدون مواجهة تيمورلنك بها، مع العلم بأن قواته كانت تقارب المليون...

ويقول ابن الشحنة:

«أخبرني الحافظ الخوارزميّ، وكان يُدير سجلاّت تيمورلنْك، أن المسجّلين بديوان العسكر عنده، يزيدون على الثمانمائة ألف...»[1].

أمّا تيمورلنْك، فقد انتقل من عينتاب إلى حلب في سبعة أيّام، ونزل بظاهرها على قرية «جيلان» يوم الخميس ٩ ربيع الأول - ٢٩ تشرين الأول ١٤٠٠ م.

والتقت طليعة تيمورلنْك، مع ثلاثمائة من المماليك في اليوم المذكور، فكانت الدائرة على جنود تيمورلنك.

وفي اليوم التالي، تجدّدت المناوشات، وقُتل عدد كبير من «التمْرية» كما يسميهم المؤرخون، وفقد اثنان من جنود الشام.

وكان اللقاء الحاسم يوم السبت ١١ ربيع الأول - ٣١ تشرين الأوّل.

وفي ليلة اليوم المذكور، نظم تيمورلنْك جيشه، وجعل في المقدمة ثمانيةً وثلاثين فيلاً، يليهم رماة السّهام الذين جمعهم من أمم شتى من الترك والتركمان والعجم والأكراد والكرج والتتار والأرمن، وقد بدا منظرهم رهيباً بحيث كانوا يَسدُّون الفضاء...

وخرج نواب الشّام بعساكرهم، ومعهم العامة من أهل حلب والنّسوان والصّبيان، ووقف نائب دمشق «سودُن» في الميمنة، ودمِرداش

(١) الروضة ٢/١٩٠.

في الميسرة، وبقية النواب في القلب، ووضعوا العامة في المقدمة ليكونوا في مواجهة الفيلة!!!.

وقد علّق «ابن تغري بردي» على هذه التعبئة بقوله:

«إنها من أسوأ التعبئات، مع ادعاء دمرداش العلم بالفنون العسكرية، لأنه لا يصح وضع العامة في المقدمة»[1].

وزحف تيمورلنك بجيوشه، فثبت الأمير شيخ المحموديّ، وقاتل هو وسودُن قتالاً عظيماً، وبرز الأمير عزّ الدين أزدمر وولده يشبك في عدة من الفرسان، فأبلوا بلاءً حسناً، فقُتل أزدمر، وجُرح ابنه في أكثر من ثلاثين موضعاً، فسقط بين القتلى، ثم حُمل إلى تيمورلنك فتعجب من إقدامه، وظهرت في هذه الموقعة بطولات فردية نادرة، لكنها ضاعت وسط الأمواج البشرية الهائلة، ولاحت الهزيمةُ بقُبحْها، ولم تمض غير ساعة، حتى انهزمت العسَاكر الإسلامية وولت الأدبَار نحو المدينة، وتبعها العوام والنسوان والصبيان، وجنودُ تيمورلنك يتعقّبونهم، فهلك تحت حوافر الخيل عدد من الناس لا يُحصيهم إلاّ الله تعالىٰ، وعندما وصلوا إلى الأبواب، تدافعوا، وداس بعضهم بعضاً، حتى صارت الجثث طول قامة، والناس يمشون من فوقها، وكأن القيامة قد قامت، والعدو من ورائهم يقتل ويأسر، فكانت ساعة يشيب لها الولدان، وكان لكل امرىء يومئذٍ شأن يُغنيه، حتى إن الذين ماتوا تحت الأرجل كانوا أكثر ممن قتل بالسيف.

وهذا يُبيّن ما يفعله الهلع بالنفوس، ولذلك فقد عيَّر تيمورلنك علماءَ حلب فقال لهم:

(١) النجوم ١٢/٢٢٢.

«إنّ الذين ماتوا من أهلكم إنما ماتوا أثناء الفرار، ولم أقتلهم بالسيف».

واعتصم الناسُ في قلعة حلب، وكانوا قد نقلوا إليها أموالهم ومتاعهم، فاقتحم جنود تيمورلنك المدينة وأشعلوا النيران فيها، ثم انطلقوا ينهبون ويقتلون ويأسرون، فالتجأ النسوان إلى الجوامع، فمال أصحاب تيمُورلنْك عليها، فأخرجوهنّ وربطوهنّ بالحبال، ووضعوا السيف في الأطفال، وصاروا يفتضون الأبكار علناً، فكان الواحد منهم يأخذ المرأة ويعلوها في المسجد بحضرة الجمّ الغفير من أصحَابه ومن أهل حلب، فيراها أبوها وأخوها وزوجها، دون أن يستطيع تخليصها لشغله بما هو فيه...

واندلعت النيران،، فأتت على مُعظم المدينة، واستشرىٰ القتلُ والهدم، حتى امتلأت الطرقات بجثث القتلى.

واستمر هذا الخطب أربعة أيّام بلياليها، والناس سكارىٰ، وما هم بسكارىٰ، ولكنه تيمورلنك...، ثم تجدد عليهم العذاب الأليم لأيام أخرى طويلة...

ولم ينسَ تيمورلنْك القلعة، فقد ضرب الحصَار عليها منذ اليوم الأول لدخوله المدينة، وهو يوم السّبت، ودافع أهلها عنها دفاعاً مجيداً، وجنودُ تيمورلنك يقذفونها بحجارة المنجنيق، ويردمون الخنادق المحيطة بها، فلما أشرفت على السقوط، طلب أهلُها الأمان، فأمّنهم تيمورلنْك، وحلف لهم بالأيمان المغلّظة أنه لا يقتلهم ولا يغدر بهم، فاستسلموا يوم الثلاثاء ١٤ ربيع الأول، ونزل دمرداش إلى تيمورلنك، فخلع عليه (ألبسه خلعةً، وهي علامة الرضا والتبعية)، ودفع له أماناً وخلعاً للنواب، وبعث معه مجموعةً من جُنْده، فأخرجوا النواب ومن كان معهم، وجعلوا كل اثنين في قيد، وأُحضروا إليه فقرّعهم ووبّخهم، ودفع كل نائب إلى من يحتفظ به.

ودخلَ القلعةَ يوم الأَربعَاء، فوجد فيها من الأموال والذخائر والسّلاح والحلي والمتاع، ما تعجّب منه لكثرته وقال: ما كنت أظنّ أن في الدنيا قلعة فيها هذه الذخائر، ويقول ابن الشحنة إن أحد كتاب تيمُورلنك أخبره أنه لم يأخذ من مدينة قط ما أخذ من هذه القلعة، ولا ما يقاربه[١].

وامتدت الأيدي إلى الضواحي تنهبُ وتقتل وتحرق، وجافت البلاد من كثرة القتلىٰ، وأقيمت «الأبراج البشرية» من رؤوس القتلىٰ، رعاية لحرمة سيّدهم، وجرياً على عادته المتبعة.

ويقول المقريزي: «إن الإنسَان لم يعد يستطيع المشي على الأرض لكثرة القتلى، وإن المآذن التي عملت من رؤوسهم كانت مرتفعةً في السّماء نحو عشرة أذرع، ومحيطها عشرون ذراعاً، قدر ما فيها من القتلى فبلغ زهاء عشرين ألف قتيل، وجعلت الوجوه بارزة ليراها من يمرّ بها»[٢].

وعُوقب أهل البلد، أو من تبقى منهم، بأنواع العقوبات وسُجنوا في القلعة تحت العذاب والنكال.

ونزل تيمورلنك من القلعة إلى دار النيابة، وصنعَ وليمةً على طريقة المغول، ووقف سائر القادة والنواب بين يديه، وأدار عليهم كؤوس الراح، وسط صياح المسلمين وآهاتهم وبكائهم وعويلهم... وأمر بطلب الأموال من أهل حلب المسجونين في القلعة، فكُتبت أسماؤهم، وسُلّط عليهم العذاب الأليم، بدون تفريق بين غني وفقير، أو كبير وصغير...

---

(١) الروضة ٢/١٩١.

(٢) السلوك ٣/١٠٣١ - ١٠٣٤.

ونهبوا القلعة، وأخذوا من الأموال والمتاع ما أذهلهم، وسيقت نساء حلب سبايا، وأُحضرت إليه الأموال ففرقها على الأمراء، وصار يطلب المزيد، حتى صار الأغنيـاء فقراء يسـألون، والتجـار حيارى مذهولين، والنسوان عاريات يتسلّى بهن جنود تيمورلنك، واستمر الحال على هذا المنوال عشرين يوماً، حتى نهايةِ شهر ربيع الأوَّل[1].

وكان تيمورلنك قد اعتقل علاوة عمن ذكر من الأمراء، كلاً من الأمير دقماق نائب حماه، والأمير بتخاص، والأمير بيغوت، وكافة أمراء دمشق وحلب، والأمير أسنْبغا الحاجب الذي جاء «لكشف الأخبار»، فكشفها جيّداً. . . لذلك أطلق تيمورلنك سراحه ووجَّـه معه الأميـر بتخاص، البريديّ وقال لهما: «اذهبا إلى مصر وأخبرا بما رأيتما وسمعتما» فخرجا مسرعين، ودخلا مصر يوم الأحد ١٤ ربيع الآخر، وأخبرا بما شاهدا.

ويعزو «ابن حجر» سقوط حلب بهذه السرعة، إلى وقوف الأمير «نُعير» موقف المتفرّج مما يجري على يد تيمورلنك، لأن التركمان كانوا قد أغاروا على أمواله فنهبوها، فلم يُسْعِفْه نائب حلب، فغضب من ذلك، ولم يحضر الواقعة[2].

٤ ـ تيمُورلنْك، وعُلمَاءُ حلب:

ولم ينس تيمورلنْك، وهو في قلعة حلب، أن يمارس هوايته

(١) عن تلك الأيام السود، انظر، لمزيد من المعلومات:
ـ السلوك ١٠٣٤/٣، والنجوم الزاهرة ٢١٩/١٢ ـ ٢٣٥، وعربشاه ١٣٠ ـ ١٣٨، والروضة لابن الشحنة ١٩٠/٢ ـ ١٩٨ وهو أفضل المصَادر لأنه كان يعيش في حلب يوم دخلها تيمورلنك، وانظر أيضاً: إنباء الغمر ١٣٤/٢ ـ ١٣٦، والضوء اللامع ٤٧/٣ ونزهة النفوس ٧٤/٢ ـ ٧٧.

(٢) إنباء الغمر ١٣٦/٢.

المفضلة، وهي الجدال والتظاهـر بالعلم والعـرفان، وهـو في ذلك كالطالب المشاكس الذي يسأل، لاختبار مدرسه، لا ليتعلم منه.

وكان تيمورلنك يحفظ مجموعة من المسائل الفقهية، التي يُطلق عليها الفقهاء «الأُغلوطات»، كلما دخل بلداً طرحها أمام العلماء لإظهار عجزهم وبالتالي أخذ بلادهم، بجريرة أجوبتهم، وهو في ذلك، وكما سبق القول، لا يفقه شيئاً من العلوم، ولا يريد أن يفهم، لأنه أخضع علماءه لسُلطانه المطلق، فسخروا له كل شيء، حتى الدين، يفسره ويفهمه كما يشاء.

ففي يوم الأربعَاء «١٥ ربيع الأول» جلس تَيمورلنْك في إيوان القلعة، وطلب العلماء فحضروا، وكان على رأسهم القاضي محمد بن الشحنة، وهو الذي تولى الردّ على معظم أسئلة تيمورلنك، وكان معه القاضي الشافعي شرف الدين الأنصَاري، والقاضي المالكي علم الدين القَفْصي، وقد سجّل ابن الشحنة تفصيلات ما دار من حديث مع تيمورلنْك في كتابه المعروف باسم «روضة المناظر»، فقال إنّ تيمورلنك أوقفهم ساعةً كاملةً ببابه، دون أن يأذن لهم، وهذا استهتار واضح بهم، ثم سمح لهم بالدخول في ثلث الليل الأول.

وكان كبير علمائه يُدعى المولى عبد الجبار بن نعمان الحنفي، العالم المشهور بسمَرقنْد، وهو الذي كان يدير الحوار، ويتولى الترجمة.

فقال له تيمورلنك: قل لهم إني سائلكم عن مسألةٍ سألت عنها علماء سمرقند وبخارى وهراة، وسائر البلاد التي فتحتها، فلم يوضّحوا الجواب، فلا تكونوا مثلهم، ولا يجيبني إلا أعلمكم، وليعرف ما يتكلم به، ثم تظاهر بعلمه وفهمه فقال: «إني خالطت العلمَـاء ولي بهم اختصاص وإلفة، ولي في طلب العلم عهد قديم».

فقال القاضي الأنصَاري عن ابن الشحنة: «هذا شيخنا ومدرس هذه البلاد، ومفتيها، سلوه والله المستعان».

فقال له عبد الجبّار: سُلطاننا يقول إنه بالأمس قُتل منا ومنكم، فمن الشهيد؟.

وظن تيمورلنك أنه قد أتى بالسؤال المحيِّر، فقال له ابن الشحنة على الفور:

«إنّ رسول الله ﷺ، سُئل عن هذا السؤال فقال من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو الشهيد، وأقول من قاتل منا ومنكم لإعلاء كلمة الله فهو الشهيد».

فقال تيمورلنك: «خوب، خوب» وقال عبد الجبار ما أحسن ما قال القاضي، وانفتح باب المؤانسة.

فقال تيمورلنْك إنه رجل نصف آدميّ، وعدد البلاد التي فتحها، فقال له العلماء:

«اجعل شكر هذه النعمة، عفوك عن هذه الأمة، ولا تقتل أحداً»

فقال: «والله إني لم أقتل أحداً قصداً، وإنما أنتم قتلتم أنفسكم في الأبواب، وَوالله لا أقتل منكم أحداً أبداً، وأنتم آمنون على أنفسكم وأموالكم».

وانخدع العلماءُ به، وتكررت الأسئلة والأجوبة، وطمع كل واحد من الحَاضرين بالجواب، وكما قال ابن الشحنة «ظن كل واحد أنه في المدرسة»، والقاضي شرف الدين الأنصَاري ينهاهم ويقول: اسكتوا، وليجب هذا الرجل، فإنه يعرف ما يقول.

وفي آخر الجلسة، ألقى تيمورلنْك بسؤاله الذي أعدَّهُ لمثل هذه

الظروف، فقال: «ما تقولون في عليّ ومعاوية ويزيد»؟ فأسرَّ القاضي الأنصَاري إلى ابن الشحنة، أن اعرف كيف تجيبه فإنه شيعي ـ وقد سبق أن بينّا مذهبه الديني واختلاف المؤرخين فيه، وأنه يلبس لكل حالة لبوسها، ويظهر في كل مكان، بالمظهر والمعتقد المناسب، وبما أنه كان ينوي تدمير الشام، فليس هناك أفضل من أن يظهر بالمذهب الشيعي ـ.

فأجاب القاضي المالكي بأن علياً اجتهد فأصابَ فله أجران، ومعاوية اجتهد فأخطأ فله أجر واحد.

فغضب تيمورلنك غضباً شديداً، وقال:

عليٌ على الحق، ومُعاويةُ ظالم، ويزيدُ فاسق، وأنتم حلبيّون تبعٌ لأهل الشّام، وهم يزيديّون قتلوا الحسين.

فحاول القاضي الشافعي، تخفيف حدة غضبه، فقال: إن المالكي لم يُحسن الجواب، لأنه أجاب بشيء قرأه في الكتب ولم يفهم معناه.

فهدأ تيمورلنك، ولعَنَ مُعاويةَ.

فقال الشافعي: «لا يجوز لعنه لأنه صحابيّ».

فقال ومن هو الصَّحَابيّ؟.

فأجابه بأنه من رأى النبي ﷺ.

فتفلسف تيمورلنك وقال:

فالنّصارى واليهود رأوُا النبي؟.

فقالوا يشترط أن يكون الرجل مسلماً.

وأراد القاضي الشافعي الأنصاري تهدئة الجوّ، فقال:

لقد قرأت حاشيةً في بعض الكتب تقول إنه يجوز لعن يزيد.

فتغيظ تيمورلنك من هذا الجواب.

فأخذ ابن الشحنة يلاطفه، فعاد إلى دون ما كان عليه من السّرور.

ثم سألهم عن أعمارهم، وكانوا في الخمسينات، فقال: أنتم في عمر أولادي أنا عمري اليوم ٧٥ سنة... ثم صلّوا، وصلّى معهم تيمورلنك قائماً يركع ويسجد، ثم أمرهم بالانصراف... واتجه إلى مقام الخليل عليه السلام، حيث فتح باب الجدل مع القضاة والعلماء الموجودين فيه، واستمر يُناقشهم حتى مطلع الفجر.

وعندما أشرقت شمس ذلك اليوم، الخميس تنصَّل من جميع أيمانه، وغدر بكل من في القلعة وصادر أموالهم، وألقى بهم في غياهب السجون تحت العذاب الأليم...[1].

ويبدو واضحاً من خلال مناقشات تيمور أنّها لم تكن علميّة ولا فقهية، وأن الغرض الأول منها إيجاد العذر لتدمير الشام لأن أهلها - نواصب - وهم مسؤولون عن استشهاد الحسين، وعليهم دفع الثمن، الذي طالما دفعوه...

ثم طلب العلمَاء ثانيةً، لكنه استبعد المالكيّ، واكتفىٰ بـابن الشحنة والأنصَاري.

فقال له ابن الشحنة: «الحقُّ كان مع عليّ، ومعاوية ليس من الخلفاء، لأن الخلافة تمت بعليّ».

فقال تيمورلنك:

«قل عليٌّ على الحق، ومعاويةُ ظالم».

فقال ابن الشحنة: «إن كثيراً من الصحابة تولوا القضاءَ لمعاوية، لأنه يجوز تولّي القضاء من ولاة الجور، وكان الحقّ مع عليّ»، فسُرَّ

(١) الروضة ١٩٤/٢، والضوء اللامع للسّخاوي ٤٧/٣، الذي أورد بعض التفصيلات التي لم يذكرها ابن الشحنة.

تيمورلنك، وطلب الأمراء الذين عيّنهم للإقامة بحلب، وإلى من يلوذ بهم، وليقيموا بالمدرسة السّلطانية تجاه القلعة[1].

ويقول ابن الشحنة، إن الأمير مُوسىٰ بن الحاجي طغاي، الذي أقامه تيمورلنك في حلب، قال له:

«إني أخاف عليكما، والذي فهمتُه عن طبيعة تيمورلنك، أنه إذا أمر بسوءٍ فعل ذلك بسرعة ولا يحيد عنه، وإذا أمر بخير ترك للمسؤول عن ذلك الحرية في أن يفعل الخير أو لا يفعله».

ثم استدعى العلمَاء للمرة الثالثة، ويقول ابن الشحنة: «فلما وصلنا إليه جاءنا شخص من علمائه، يقال له «المولى عمر»، فسألناه فقال:

«يريد أن يستفتيكم في قتل نائب دمشق الذي قَتَل رسله، فقال ابن الشحنة: «هذه رؤوس المسلمين تقطع وتحضر إليه بغير استفتاء، بعد أن حلف ألا يقتل أحداً، فما لزوم الفتوى؟»».

فعاد الرسول إلى تيمورلنك، وهم يرونه من بعيد، وبين يديه لحم يأكل منه، ثم جاء الرسول ومعه شيء من اللحم، وانطلقت من معسكر تيمورلنك ضجة، وعلا صوته، فقال لهم الرسول:

«إن سلطانكم لم يأمر بإحضار رؤوس المسلمين، أي الرؤساء وإنما أمر بإحضار رؤوس القتلى ليجعل منها أبراجاً، رعاية لحرمته، على ما جرت به عادته، ففهموا منه غير ما أراد، وإنه قد أطلقكم فامضوا حيث شئتم»[2].

(١) الروضة ١٩٥/٢، وتعرف المدرسة السلطانية أيضاً بالظاهرية، وهي مدرسة حنفية وشافعية، بناها الملك الظاهر الأيوبي حوالي سنة ٦١٥ هـ - سنة ١٢١٩ م. در الحبب في تاريخ حلب ١١٣/١.

(٢) الروضة ١٩٥/٢، وعربشاه/١٤٢ - ١٤٣.

وكان قصد تيمورلنك من هذه «الحركات واضحاً، وهو إذلال العلماء، لأنّ الأبراج البشريّة، كانت قد أُقيمت بحلب ورآها تيمورلنك منذ اليوم الأول لدخوله، وكان بوسعه مخاطبة العلماء مباشرة، لكنه أبقاهم بعيداً عنه، وهو ينظر إليهم ثم أرسل إليهم بقطع اللحم. . .

وإذا علمنا أن تيمورلنك لا يفهم العربيَّة أَصْلاً، فمن غير المعقول والحالة هذه، أن يحصل التباسٌ بين «رؤوس القتلى» ورؤوس القوم. . . وإنما هي واحدة من حركات تيمورلنك التي كان يُتقنها تماماً، لقد كان يقصد أولاً وآخراً إذلال علماء حلب والاستخفاف بهم لأنّهم لم يَلعنوا معاويَة، هذا كل ما في الأمر.

ويقول ابن الشّحنة: «وتوجّهنا إلى مشهد الحُسين، وأقمنا به ننظر إلى حلب، والنّار تضطرم في أرجائها. . .

وبعد ثلاثة أيّام لم يبق بها أحد من التتار، فنزلنا إلى بيوتنا بالمدينة، فاستوحشنا منها، ولم يقدر أحد منا على الإقامة في بيته من النتن والوحشة، كما تعذّر علينا السلوك في الأزقة من كثرة الجثث. . .»[١].

وغادر تيمورلنك حلب في الثاني من ربيع الآخر، بعد أن تركها كأن لم تغنَ بالأمس، لأنّ أهلها تبعٌ لأهل دمشق. . .

فإن كان هذا هو الثمن الذي دفعته حلب لأنها كانت تبعاً لدمشق، فما هو الثمن الذي ستدفعه دمشق نفسها. . .؟.

ـ سقوط حماة وحمص:

وفي الوقت الذي سقطت فيه قلعةُ حلب، الثلاثاء ١٤ ربيع

(١) الروضة ٢/١٩٦.

الأول، ٣ تشرين الثاني، كانت قوات ابنه «ميرزاشاه». تحاصر حماة.

وقد انطلق الجنود كعادتهم، ينهبون ويقتلون ويأسرون في الضواحي، وصاروا يطؤون الأبكار علناً كما فعلوا بحلب، وعمدو إلى جميع الدّور الخارجةِ عن سور حماه فدمَّروها.

وأخيراً، قَرَّر أهل حماة الاستسلام، ففتحوا باباً من المدينة، ودخل ميرزا شاه في نفر قليل من أصحابه، ونادى بالأمان، فقدم له الناس أنواع الطعام فقبلها، وأقام في المدينة رجلين يحفظانها، وخرج إلى مُخيّمه وبات فيه، ثم عاد في اليوم التالي، يوم الخميس، ووعد الناس بخير ثم انصرف.

وكانت القلعةُ ممتنعةً عليه، فقام أهلها بعمل أخرق دفعوا ثمنه غالياً فيما بعد، فقد نزل فريق منهم إلى المدينة، وقتلوا الرجلين اللذين أقامهما ميرزاشاه، فغضب من ذلك، واستباح المدينة، وأشعل النار فيها، ثم اقتحمها أصحابُه يقتلون ويأسرون وينهبون، حتى صارت كمدينة حلب سوداء مغبرة خالية من الأنيس، ووصل تيمورلنك إلى المدينة في العشرين من ربيع الآخر[١].

وقد ذكر «ابن عربشاه» أنه عندما مرّ بحماة سنة ٨٣٩ هـ سنة ١٤٣٥ م، وجد في الجَامع النوروزيّ، شرقي البلد، وعلى حائطه القبلي نقشاً بالفارسيّة ترجمته:

«وسبب تصوير هذا الكلام، هو أن الله تعالىٰ يسّر لنا فتح البلاد والمماليك حتى بغداد، فحاورنا سلطان مصر وراسلناه وبعثنا إليه قُصَّادنا بأنواع الهدايا والتحف، فقتل قصّادنا من غير ذنب، وكان قصدنا أن نتأكد المودة بيننا.

(١) السلوك ٣/١٠٣٥ـ والنجوم ١٢/٢٢٦.

تم بعد ذلك بمدة قبض بعض التركمان على أناس من جهتنا (يعني أطْلمش)، وأرسلوهم إلى سُلطان مصر برقوق، فسجنهم وضيق عليهم، فلزم من هذا أنا توجهنا لاستخلاص متعلقينا من أيدي مخالفينا، واتفق لذلك نزولنا بحماة في عشرين ربيع الآخر ٨٠٣ هـ (٩ كانون الأول ١٤٠٠ م)[١].

ثم وصل تيمورلنْك إلى حمص، فلم يتعرض لها، وخرج إليه رجل من آحاد الناس. يُدعى «عمر بن الرّواس» فتقرَّب إليه، وقدّم له هدايا فاخرة، فولاهُ أمورَ البلد، وولّى القضَاءَ رئيساً يُدعى «شمسُ الدين بن الحدّاد»، ونادى بالأمان، وقد زعم أنّه عفا عن حمص، إكراماً لخالد بن الوليد رضي الله عنه، **وبذلك كانت حمص هي المدينة الوحيدة في بلاد الشّام التي سلمت من بطش تيمورلنك...**

ثم غادرها إلى بعلبك، فتضرَّع إليه أهلُها وقدموا له الهدايا، لكنه أعمل فيها السّلب والنهب والقتل، وأضرم فيها النار، وغادرها إلى دمشق[٢].

---

(١) ابن عربشاه/١٤٦.

(٢) المصدر السابق /١٤٧.

الفصل السّابع

حكايةُ دمَشْق مع تيمورلنك

١ - دمشق تنتظر السلطان.

٢ - تيمورلنك والسلطان على أبواب دمشق.

٣ - انسحاب السّلطان المفاجىء من دمشق.

٤ - تيمورلنك يحتالُ على أهل الشّام.

٥ - لقَاء تيمورلنك بعلماء الشام.

٦ - تيمورلنك يبيعُ دمشق.

٧ - سُقُوط القلعة.

٧ - دمشق تعيش أيام سادوم وعامورة.

٩ - دمشق بعد رحيل تيمورلنك.

١ ـ دمَشقُ تنتظر السُّلطان:

وتقدمت جحافل تيمورلنك نحو دمشق، التي كانت تستعد لمواجهة مصيرها المشؤوم، لأنها كانت عاصمة الأمويين، وهي تهمة لا يعرف معناها إلا تيمورلنك وأمثاله.

وفي الطريق إليها، هرب الأميرُ شيخ المحموديّ نائب طرابلس، ثم تبعه الأمير «دمرداش» نائب حلب، واستمرّ باقي النواب في قبضته حتّى أحاط بدمشق، وهناك تخلّص من عدوه القديم «سودُن» نائب دمشق، فقتله في قبة يلبغا بظاهر المدينة[١].

وكان قد دخل المدينة، هارباً من حلب، الأميرُ أسنْبغا الذي أطلقه تيمورلنك، ومعه رجلٌ يدعى «عبد القهار» وطلب من الناس الفرار وشدّد في ذلك، فنادى نائب الغيبة بمنع الفرار، والبقاء في المدينة، وتفرقت الآراء، وعمّ الفشل، وكثرت الأهواء، وماج الناس وتفرقوا، فهرب بعضُهم إلى القدس، وبعضهم إلى مصر، واعتصم آخرون في قمم الجبال، وبقي في المدينة من بقي، ممن رأى أنّ الشهادة في دمشق، أفضل من الموت برداً، أو على أيدي سكان جبال لبنان والأعراب، الذين يتربصون بهم الدوائر...

(١) عربشاه/٤٧.

ولذلك نظر هؤلاء، الذين قرروا البقاء، باشمئزاز شديد لأولئك الذين هربوا، ولعلّهم كانوا يفضلون أن يموتوا معاً أو يعيشوا معاً...

وانـطلقت الاتهامـات جزافـاً، فقد اتّهم «أسنْبغـا» بالخيـانة[1] والتواطؤ مع العدو، لأنه نصحهم بإخلاء المدينة، وليتهم فعلوا... وعموماً، فإنه لا يمكن أن يُوجَّه اللوم لأحدٍ من دمشق، ففي الظروف العصيبة، يفقد الناس أعصابهم، ويصاب تفكيرهم بالشلل التام...

ولكن، لو عاين أهلُ دمشق، ما عاينه أسنبغا في حلب، لما بقي في المدينة أحد، ولكنه القدر...

وفي وسط تلك الأجواء العاصفة، اجتمع من بقي في المدينة من الأعيَان والفقهاء والقضاة للنظر في أمورها، ومحاولة إنقاذ ما يمكن إنقاذُهُ،... فوردت عليهم الأخبار باقتراب العدوّ، ولم يكن لذلك صحّة، فحُصّنت المدينة ووقف الناس على الأسوار وقد لبسوا لأمة الحرب، ونُصبت المجانيق على القلعة وشُحنت بالذخيرة والزاد... وفي تلك الأثناء وصل المنهزمون من حماة، وعظم الخوف وهمَّ الناس بالجلاء، فمُنعوا منه، ثم وصل رسل تيمورلنْك يطلبون تسليم المدينة، فعادت الآراء إلى ما كانت عليه من التباين، وضاعت الحكمة، وانشغل كل واحد بنفسه، وارتفع عويل النسوان، وكان وقتاً عصيباً...

وفي يوم ٢٤ ربيع الآخر قدم دِمِرداش فارّاً من تيمورلنْك، لا يلوي على شيء، ثم تبعه أهل بعلبك بنسائهم وأولادهم وأنعامهم...[2].

هذا في دمشق، أما في القاهرة فقد قدّمنا أن الجيش المصري غادر الريدانية، يوم ١٠ ربيع الآخر، فوصل إلى غزة بعد عشرة أيّام

(١) عربشاه/١٤٧، والسلوك ٣/١٠٣٤، والنجوم ١٢/٢٧.

(٢) السلوك ٣/١٠٣٨، والنجوم ١٢/٢٢٧.

كاملة، علماً بأنّ هذه المدة تكفي للوصول إلى دمشق....

وهناك في غزّة، أطلق سراح الأتابكي تغري بردي، بشفاعة أخته «شيرين»، وعيَّنهُ السّلطان نائباً لدمشق بدل نائبها سودُن، كما عيّن نواباً لطرابلس وصفد وغزة والقدس، وكأن البلاد في حالة سلام شامل.

وفي غزة أيضَاً، عُقد مجلس عسكري، لبحث أفضل السبل للتغلّب على تيمورلنك، الذي كان قد دخل حماة في تلك الفترة، وقد ظهرت الأحقاد والضغائن بين الأمراء، وحاول كل منهم إظهار خصمه بمظهر العاجز الذي لا رأي له، فوقع الفشل، ولم يتم الاتفاق على شيء، رغم صُعوبة الموقف البالغة.

وكان الأمير تغري بردي، كما يروي ابنُه أبو المحاسن، قد عرض في غزة على السّلطان والأمراء خطة محكمةً لمواجهة الموقف العصيب، فقد اقترح أن يبقى السلطان وجيشُه في غزة وضواحيها، ويتوجَّهُ هو، إلى دمشق مع مجموعة مختارة من الرجال، ليتولى تحصين البلد والدفاع عنها، لأنّها مدينةٌ حصينةٌ وفيها من الميرة ما يكفي سنين، وتيمورلنك لا يستطيع اقتحامها بسهولةٍ، وعسكره كبير، والوقت شتاء، فلا يستطيع المكوث معهم طويلاً خارج المدينة.

وفي هذه الحالة، إما أن يتقدم نحو غزَّة لملاقاة السّلطان، فيصبح بين عسكرين في أرض كلها أعداء، ولـذلك فـمـن المستبعد أن يفعل ذلك، وإمّا أن يعود أدراجه، كما فعل عندما خرج إليه السّلطان برقوق، فينقضّ العربان والتركمان والأكـراد والجيش المملوكي على مؤخرة جيوشه حتى يتم طردها من الشام.

وأما إذا ما أقام على دمشق، فإن السّلطان يُرسل إليه الكتائب لمناوشته وقطع خطوط تموينه.

ويقول ابن تَغْري بَرْدي: إن الحاضرين رأوا أن هذا هو الرأيُ السديد، واقتنع السلطان به، حتى إن تيمورلنك نفسه، عندما علم به قال إنه رأي سديد وخطة محكمة...

وكان المفروض في ذلك الوقت العصيب، أن تتضافر الجهود، وتخلُص النّياتُ لإنقاذ البلاد، كما حصل في عين جالوت، لكن الأمر هنا كان على الضد من ذلك.

فقد قال بعض الأمراء الذين شاركوا في قتل تَنَم وأَيْتَمش وأصحابهما وسيطروا على مقدرات الأمور، قالوا للسلطان وقادته: كيف تقتلون رفاقه، ثم تسلّمونه الشام، فيتوجهُ إليها، ويتحالف مَع تيمورلنْك، ويعود ليقاتلنا جميعاً حتى يأخذ بثأره منا؟ فتراجع السُّلطان ورفض الاقتراح... وانفضّ المجلسُ، وتوجه الأتابكيّ تَغري بَردي إلى دمشق، وقد تأسّف على رفض اقتراحه، عندما رأى استماتة أهلها بالدفاع عنها، مع قلة الاستعداد، وعدم وجود خطة محكمة للدفاع[1].

وهكذا، فقد أبت المقادير إلّا أن تسير لمصلحة تيمورلنك، وكانت كل الظروف تدفع بالمدينة الخالدة نحو الكارثة.

وغادر السلطان غزة، بعد أن مكث فيها ستة أيّام كاملة، وكأنّه وجيشه في رحلة صيد...

وبينما السّلطان في طريقه إلى دمشق، استطاع تيمورلنك أن يُروّج بين الصفوف، أخباراً ملفّقة لتثبيط العزائم وتفريق الكلمة فوق ما هي متفرقة.

---

(١) النجوم الزاهرة ٢٣٢/٢، وقد ذكر الصيرفي في نزهة النفوس ٨١/٢ أن ابن تغري بردي أخبره في بيته بالحادثة نفسها، وبأن الأمراء آثروا هواهم على مصلحة البلاد.

وخلاصَةُ هذه الأخبار التي نشرها السُّلطان أيضاً في مصر، أنّ خمسةً من أُمراء طرابلس أخبروا أنّ التركمان والعرب استعادوا مدينة حلب، وقتلوا مَنْ فيها من أصحاب تيمورلنك، وهم زهاء ثلاثة آلاف، وأنّ تيمورلنك في سلميّة، وأنه بعث عسكراً إلى طرابلس، فقُتلوا عن آخرهم لانحصارهم بين جبلين، وأنه حضر إلى طاعة السُّلطان خمسةٌ من أمراء المغول، وأن نصف عسكر تيمورلنك، ينوي الانضمام إلى السُّلطان، ليس هذا فحسب، بل إن صاحب قبرص أخبر بأنه على استعداد للقدوم بجيشه نصرةً للسّلطان...

وقد انطلت هذه الأكاذيب على الجميع، ولم يُحاول أحدٌ التأكد من صحتها، ونظراً لأن جميع العساكر تقريباً كانوا يتهرّبُون من لقاء تيمورلنْك، فقد رحَّبُوا بهذه الأخبار، وانحلّت عزائمهم عن القتال، وهذا ما كان يرمي إليه تيمورلنْك.

لقد كان حروبُ تيمورلنك كلها، حروباً نفسيَّةً، يُوجّهها عقل مدبّر، يعرف كيف يستغلُّ التجسّس والإشاعات والحالة النفسية للجيوش في سبيل الحصول على النصر بأيسر الطرق.

٢ - تيمورلنْك والسّلطان على أبواب دمشق:

... وأخيراً، دخل السّلطان دمشق في سادس جمادىٰ الأولىٰ، في الوقت الذي كانت فيه جيوش تيمورلنك قد وصلت إلى البقاع[1]...

وضَرَب السّلطان خيامه في قبة يلبغا، ونزل تيمورلنْك في «قطنا» إلى الغرب منه، ثم تحول إلى سفح قاسيون، يُراقب السُّلطان،

---

(١) السّلوك ١٠٣٩/٣ والنجوم ٢٣٢/٢.

والسّلطان يراقبه... وقد تمركز تيمورلنْك في «قبة السيّار»[1]، وحفر الجيشان الخنادق، والنسوان والولدان في دمشق ينادون:

«يا الله يا رحمن، انصر مولانا السُّلطان»، والناس في المساجد يبتهلون إلى الله تعالى أن يُنزِل نصره عليهم، ويتلون القرآن الكريم، وصحيح البخاري، كدأبهم في مثل تلك الظروف.

وتناوش العسكران في تلك الأيّام أربع مرات، فكانت الحرب سجالاً...

وقد بدأت أولى المناوشات، يوم السبت ٨ جمادىٰ الأولىٰ ـ ٢٥ كانون الأول، حيث كانت جيوش تيمورلنك قد ملأت الأفق، وجيش السّلطان يستعدّ للقتال، واصطدمت طليعة السّلطان مع طليعة تيمورلنْك، فانكسرت الميسرة السّلطانية، وانهزم من كان فيها من عسكر غزة وغيرهم إلى نواحي حوران، وجُرح جماعة «وحَمل تيمورلنك حملةً منكرةً لاحتلال دمشق، فصدمْته ميسرة السّلطان فعاد خائباً...

وقد قتل في هذه المناوشة، ميرزاشاه بن تيمورلنك، وصهره نور الدين...[2].

وهنا لجأ تيمورلنك من جديد، إلى أسلوبه المفضّل في الخداع، فبعث إلى السّلطان يعرض عليه الصّلح، مُقابل تسليمه «أطلمش» فرفض السُّلطان...

ثم أرسل تيمورلنْك رسولاً آخر في المعنى المذكور، وقد خُدِع به معظم الأمراء، ويقول ابن تغري بردي:

(١) في قاسيون، وتنسب إلى «سيار الشجاعي».
(٢) السلوك ٣/١٠٤٢.

«لقد ظهر للأمراء ولجميع العساكر صدق مقالته، وأنّ ذلك على الحقيقة، فأبى الأمراء ذلك، واستُؤنف القتال بين الفريقين...».

وقد انطلى كلام هذا الرسول أيضاً على المؤرخ ابن حَجَر وغيره من المؤرخين العرب، وظنوا أن تيمورلنك عاقد العزم فعلاً على الصلح[1].

والواقع أنه كان يرمي أولاً وآخراً إلى تفريق الكلمة، وإلا، فهل يعقل أن يعرض الصلح على السّلطان، وهو يعلم مدى ضعف جيشه وصغر سنّه وتفرق كلمة قادته، وجهلهم بأصول الحروب؟.

هل من المعقول أن يطلب الصلح وهو على أبواب دمشق بجنوده المليون، وقد قطع آلاف الأميال لمجرد أن يسلموهُ «أطلمش» زوج بنت إحدى حفيداته، في الوقت الذي قُتل فيه ابنه وصهره على أبواب المدينة دون أن يكترث بهما!!!.

وأخيراً: ماذا جنت حلب، وما علاقتها بأطلمش حتى يُدَمِّرَها تيمورلنك؟ هل هي التي خطفته أو كانت تُؤويه؟.

إنّ ما كان يرمي إليه تيمورلنْك، هو إيقاعُ الفشل في صفوف المسلمين، وهو ما حصَل بالفعل، لأن الأمراء الذين رُفضت آراؤهم في الصلح، شعروا بالامتعاض، وفترتْ همتهم عن القتال، واغتنموا أوّل فرصة للهرب إلى مصر، كما سنرىٰ.

ونحن نجد أنفسنا بين الحين والآخر، مضطرين لإبداء رأينا فيما نعرض من وقائع، لأن قصدنا تقديم الحقيقة التاريخية الثابتة، ولو كنّا على قناعة برغبة تيمورلنك بالصلح، لذكرنا ذلك، والبحث العلمي، لا

(١) النجوم الزاهرة ١٢/٢٣٥، وإنباء الغمر ٢/١٣٧.

يفترض فيه تسجيل الوقائع، ووضعها أمام القارىء بدون تمحيص، بل إن نقد الأخبار، وكشف الغث من السمين منها، من أول واجبات المؤرخ، وذلك حتى لا يختلط الحقّ بالباطل، ويتحول رجل مثل تيمورلنك من إنسان مدمّر منتقم، إلى إنسان وديع مظلوم ومُعتدى عليه...

وقد فطن بعض المؤرخين، إلى ذلك، فقال المؤرخ الصيرفي: «إن ما عرضه تيمورلنْك كان مكراً وخديعة وكذباً»[1].

لقد أعطى تيمورلنْك الأمَان لعشَرات المدنِ ومنها بغداد وسيواس وحلب ودمشق، ثم غدر بها جميعاً...

ولو كان عند السّلطان الناصر فرج وحاشيته، أدنى شك بكذب تيمورلنْك وخداعه فيما عرضه، لأطلقوا سَراح «أطلمش» هذا وأنقذوا دمشق من ويلات تيمورلنك.

إنّ أمان تيمورلنك المزعوم، يذكّر بأمان هولاكو لبغداد، أوْ أمان الصليبيين لعكّا... لأنه في قانون السياسة الغائية، لا يبقى للواسطة أهمية تذكر.

وبقي تيمورلنك في مكانه بضعةَ أيَّام، وكان يُرسل في كلّ يومٍ طائفةً من عسكره تقترب من جيش مصر، ثم تعود بدون قتال.

وفي الثالث عشر من جُمادىٰ الأولىٰ، حضر إلى السّلطان الناصر فرج، الأمير «حُسين بهادر» أحد أحفاد تَيمورلنك هارباً منه، وعلى رأسه تاج مرصَّعٌ بالجواهر، فاستُقبل بحفاوةٍ بالغة من قبل السلطان وحاشيته.

وقد اختلفت الآراء حول أسباب هربه، ولكن الأرجح أنه كان هروباً حقيقياً، وليس من ألاعيب تيمورلنك... وقد كان حُسين هذا،

(1) نزهة النفوس ٢/٨٢.

مقرَّباً عند جدِّه، وربّما لم يكن مقتنعاً بجدوى تلك الحروب التي كان يخوضها ضد المسلمين، ولاسيّما اجتياحه الشام، معقل الإسلام، ولذلك سجنه تيمورلنك عندما دخل دمشق، ورفض مقابلته، ولم يصفح عنه إلا بعدما عاد إلى بلاده.

وقد استبشَرَ المماليكُ بالتجاء حُسين هذا، وربما كان هذا الالتجاء أوّل وآخر حدث تم على عكس رغبة تيمورلنك في كل حروبه التي خاضها في بلاد الشام والعراق والدولة العثمانية أيضاً، ولو أن المماليك استطاعوا الصمود أياماً أخرىٰ، لتغيّر الوضع تماماً، ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث، مع الأسف...[1].

وفي ١٩ جمادى الأولىٰ، رحَل تيمورلنْك إلى «شقحب» قُرب الكسوة، في محاولة لجمع الميرة والأعلاف، حسبما تزعم المصادر الفارسية، فظن أهل دمشق أنه على وشك الفرار، فاجتمعت العامة حول المماليك وانقضوا على فرقة لتيمُورلنْك كانت متمركزةً في الغوطَة، فانهزم المهاجمون، وتعقّبهم جُنود تيمورلنك يقتلون ويأسرون، بحيث أفنوا عدداً كبيراً من أهل دمشق والمماليك الذين تسميهم المصَادر الفارسية بالأراذل والعامة[2].

وفي اليوم التالي، الخميس ٢٠ جمادى الأولىٰ، عبّأ تيمورلنك قواته بطريقته المعهودة، وهي صفوف طويلة من المشاة، وصلت إلى أكثر من سبعين صفاً، طول الصف الواحد يتراوح بين ١٢ - ١٦ كيلومتراً[3] يتقدمها الفيلة.

(1) تيمورلنك صفحة ٣٠٢، وانظر المصَادر المذكورة هناك، وقد ذكرت المصَادر الفارسية أنه هرب يوم ١٩، والصواب كما يذكر المقريزي أنه هرب يوم ١٣، انظر السلوك ٣/١٠٤٢.

(2) نزهة النفوس ٢/٨٤.

(3) ذكر المؤرخ الفارسي شرف الدين أن طول الصف يتراوح بين ٣ - ٤ فراسخ، =

ولم تكن هذه الطريقة لتنجح لو كان في الطرف المقابل مجموعات من الفرسان الأشداء القادرين على الانقضاض الخاطف على تلك الصفوف الجرارة وفتح ثغرات فيها، ولذلك واجهها المماليك بطريقتهم التقليدية، فوضعوا الأمير نوروز الحَافظيّ في الميمنة، ويشبك الدوادار في الميسرة، والسّلطان في القلب، ووقع بين الطرفين قتال متقطع استمرّ طوال النهار، وعاد الفريقان إلى معسكراتهما مع حلول الظلام . . .

وكانت هذه المعركةُ، إن صحّت هذه التسمية، آخر لقاء بين المماليك وتيمورلنْك على أبواب دمشق، وقد أشاع تيمورلنْك في إثرها، أنّه ملّ من القتال، وأنّه عائد إلى بلاده، وأن البرد قد فتك بجنوده وأضناهم، فخارت عزائم المماليك، الذين كانوا يتصرَّفون حتى ذلك الحين، وكأنّهم يلعبون بالسيوف والرماح في ميادين القاهرة، كعادتهم . . . ولم تكن أفعالهم وحركاتهم مع تيمورلنك وجيشه، لتدخل تحت اسم القتال أو الجهاد أو الحرب، بأي حال من الأحوال . . . وإن الإنسان ليستعجبُ من تلك الحركات الصّبيانية الطائشة التي كان يمارسها رجال، يُفترض أنهم في قمة السّلطة والمسؤولية، وفي أشدّ ساعات الخطر، حتى يكاد المرء يتَهمهم بالاستهتار الذي يقرب من درجة الخيانة . . .

وليت المسرحيّة وقفت عند ذلك الفصل، ولكن القدر كان يدّخر لدمشق، الفصل الأخير الذي فاق كل الفصول السّابقة بشاعةً وسخرية وخيبةً، ألاّ وهو الانسحابُ المفاجىء للسّلطان والجيش المصري من دمشق تحت جنح الظلام، وتركها أمام تيمورلنك وجهاً لوجه . . .

= والفرسخ أربعة كيلومترات.

٣ ـ انسحاب السّلطان المفاجىء من دمشق :

ليس ما هو أغربُ من هذا الانسحاب إلاّ أسبابه، وهذه الأسباب تعطي فكرة واقعية تقرب من الخيال، عن مدى الاستهتار والضعف الذي كان منتشراً بين صفوف جيش السّلطان.

فقد حدث أن اختفى من جيش السّلطان، مجموعةٌ من الأمراء، خوفاً على أنفسهم من العصابة المتحكّمة في السلطان، من أمثال «نوروز الحافظي» «ويشبك الشبعاني» وغيرهما من أمراء مصر في تلك الفترة السوداء.

وكان ممن اختفى من الأمراء: سودُن الطيار، وقاني باي العلائي، وجَمق، ويشبك العثماني، وبرسبغا الدوادار وغيرهم، وقد أدى اختفاؤهم المفاجىء إلى ازدياد الأمور تعقيداً، بحيث صار كل أمير يخشى على نفسه من الآخر.

ثم أُشيع بأنّ الذين اختفوا، إنما فرّوا إلى مصر لسلطنة أحد المماليك الجراكسة، ويدعى «لاجين الجركسيّ» الذي كان بمثابة شيخ للجراكسة في مصر، وكان المنجمّون قد بشّروه أكثر من مرّةٍ، بأنه سيملكُ مصر، حتى صدَّق ذلك وحدّثَ نفسَه بالسَّلطنة، وصار يعد الناس بأنه إذا أصبح سُلطاناً فإنه سُيبطل الاوقاف، ويحرق كتب الفقه، ويولي القضاء قاضياً واحداً حنفياً من الجراكسة وليس من المصريين . . .

وكانت له أقوال مأثورة لدى الجراكسة، استمرت طوال القرن التاسع، فكانوا يرددونها في كل مناسبة ويستشهدون بها وكأنها شيء مقدس، وعلاوةً على ذلك فإنَ كلمته كانت مسموعةً عند قومه . . .

وكان السُّلطان برقوق يعرف ذلك تماماً، لذلك تجاهله طوال

حياته، ولم يمنحه أية رتبةٍ، وعاش يطمع بالسّلطنة وهو ما يزال في مرتبة الجندي العادي.

ولذلك فإنه لما علم السُّلطان فرج وقادته بخبر لاجين هذا، تركوا القتال، وقرّروا العودة إلى مصر على وجه السّرعة.

وتمَّت المهزلةُ، مساء يوم الخميس ٢٠ جمادى الأولىٰ، حيث سُمِعت في معسكر المصريين جلبة وضوضاء ومشاحنات، وصلت إلى سمع تيمورلنك، بل إنه رآها أيضاً بعينه، واستنتج ببساطة أن المصريين على وشك الفرار، فعاد إلى معسكره وقضى الليل فيه آمناً مطمئناً...

أما أمراء مصر، فقد أجمعوا أمرهم في سحر ليلة الجمعة على العودة إلى مصر مع السّلطان على جناح السرعة، فخرجوا في الفجر، واتجهوا إلى دمّر، ومنها إلى البقاع، ثم عرّجوا على صفد، وانطلقوا إلى السّاحل ويمّموا وجوههم نحو غزة... ثم تلاحق بهم من بقي من الأمراء وأرباب الوظائف، وعندما بلغوا غزة، وجدوا فيها الأمراء الهاربين، فلم يعاتبوهم واتّجه الجميعُ إلى مصر يجرّون أذيال الخزي والعار، وهم في أسوأ حال.

وعلم بعض الناس في دمشق، ممن لم يغمض لهم جفن في تلك الليلة الطويلة السّوداء بانسحاب السّلطان، فركبوا في إثْره، وأخذوا الطريق الأعظم المتّجه إلى القاهرة، فلم يقعوا للسّلطان على أثر، فتخطّفهم العشيرُ واللصوص، وأتوا على ما معهم، فمات كثير منهم خوفاً وبرداً وجوعاً...

أما عامة الناس في دمشق، فقد ترامت إلى أسماعهم أخبارُ الانسحاب، فكانوا بين مصدّق ومكذّب، وكانوا يُلازمون الأسوار ليلاً ونهاراً، وقد استعدوا للقتال، ثم صعدوا إلى الأماكن العالية، فوجدوا

مُخيّم السّلطان وقد أتت النار عليه، ثم تبيّن لهم أنه لم يبق في قبة يلبغا أحد، فخشعت أصواتهم، وسكنت حركاتهم، وأخذتهم العبرات، وقالوا بصوت كسير: «لقد هرب السّلطان»، فانقصم ظهرهم وأُسقط في أيديهم، وباتوا حيارى لا يدرون ما يفعلون[١].

ونحن نرىٰ، أنه لم يكن ثمة داع لانسحاب السلطان، لأن نائبيه في مصر: يلبغا السّالمي وتمراز، كانا من الكفاءة والمقدرة بحيث يستطيعان بسهولة إحباط مَساعي الأمراء الهاربين، والمحافظة على عرش السُّلطان، ولذا، فإنّ الانسحاب كان خطأً فادحاً، وخيانة عظمى ووصمة عار أبديّة في تاريخ السّلطان والمماليك.

لقد أبت الأقدار إلا أن تسير لصالح تيمورلنك حتى النهاية، وإن الفوضى التي سادت في دمشق آنذاك، وما تبعها من الفشل والوهن، كانت أسوأ ما حل بدولة المماليك منذ قيامها حتى سُقوطها.

ويقول «ابن تغري بردي»:

«أخبرني غير واحدٍ من أعيان مماليك الظاهر برقوق أنهم لما بلغهم خروج السّلطان، ركبوا في الحال، غير أنّه لم يمنعهم من السفر إلا كثرة السّلاح الملقى على الأرض في الطريق، والذي رماه المماليك الهاربون ليخفّفوا عن خيولهم، وكان الذي يقصّر به فرسه، يقع في أيدي تيمورلنك، إذا نجا من الأعراب وسكان جبال لبنان...»[٢].

ويقول الصّيرفي. إنّه لم يتخلّفْ في دمشق غير أربعة من صغار الأمراء، وإن الذين كانوا يرافقون السّلطان كانوا زهاء الخمسمائة، وقد ألقى الجميع بسلاحهم وعتادهم، وتركوا جمالهم وأثقالهم، حتى أنّ جملة ما خلفوه وراءهم كان:

(١) عربشاه ١٥٢١ ـ ولقاء ابن خلدون /١٠٤، والسلوك ١٠٤٥/٣، والنجوم ٢٣٥/١٢.
(٢) النجوم ٢٣٧/١٢.

٣٠,٠٠٠ رأس من الخيل
٢٠,٠٠٠ رأس من البغال
٥٠,٠٠٠ رأس من الجمال
١٠.٠٠٠ رأس من الهجن[1]

وقد قُدّرت قيمة ما تركوه وراءهم بملايين الدنانير. . .

ودخل السُّلطان القاهرة يوم الخميس خامس جمادى الآخرة ـ ٢٢ كانون الثاني ١٤٠١ م، ومعه الخليفة والأمراء، ونحو ألف من المماليك السُّلطانيَّة، ونائب دمشق تغري بردي، وحاجب الحجاب بها، وغالب أمرائها ونواب الشَّام وهم في شرّ حال، وقد شُوهد كثير منهم وقد دخلوا عراة، فكادت عقول الناس تطير، وشرعوا يبيعون متاعهم، استعداداً للهروب إلى الصحارىٰ. . .[2].

ولما اجتمع شملْ الهاربين، قام الأمير يلبغا السّالمي بإصلاح شأنهم، وحمل إليهم السّلاح والعتاد، وأخذ في جمع الأموال لإرسال جيش إلى دمشق. . . ولكنْ بعد خراب البصرة، أعني دمشق. . .[3].

وهاجم تيمورلنك المدينة يوم الجُمُعة بعد رحيل السّلطان، فتصدّى له عوام دمشق وغلمانها، ومن بقي فيها من المماليك وقاتلوهُ بضراوةٍ، وخرج فريق منهم من أبواب المدينة فأوقعوا بجنوده وقتلوا منهم زهاء الألف، وأدخلوا رؤوسهم إلى المدينة، وهم يُمنّون النفس بعودة السّلطان أو وقوع معجزة، ولكن السُّلطان لم يعد، والمعجزة لم تقع، وبقي أهل دمشق وجهاً لوجهٍ أمام أعتى فاتحٍ عرفهُ التاريخ. . .

---

(١) نزهة النفوس ٢/٨٤ ـ ٨٧.
(٢) السلوك ٣/١٠٤٥، النجوم ١٢/٢٣٨.
(٣) إنباء الغمر ٢/١٣٧ ـ ١٤٠.

أما تيمُورلنك، فإنه لم يشأ أن يُضيِّع وقتَهُ في دمشق، فقام بزيارة أضرحة الأولياء في مقبرة الباب الصغير، وتوجَّه إلى مقام أم المؤمنين أم سلمة، وأم المؤمنين أم حبيبة بنت أبي سفيان، وقرأ الفاتحة، وأمر ببناء قبةٍ على قبر أم حبيبة، ثم زار ضريح بلال الحبشيّ، وعاد إلى مقرّه في القصر الأبلق (التكيّة السليمانية اليوم)[1]، وهذه الزيارة، تؤكّد أن تيمورلنك لم يكن شيعياً، وإنما كان يتشيّع عند اللزوم، لغاية في نفسه. . .

٤ ـ تَيمُورلنك يحتال عَلىٰ أهل الشام:

وبينما القتال يدور، وقد قرر أهل دمشق الاستمرار فيه إلى النهاية، تقدم رجلان من أصحاب تَيْمورلنْك وصاحا بمَن خلْف السُّور:

«الأميرُ يريدُ الصُّلح، فابعثوا رجلاً عاقلاً حتى يحدِّثَه في ذلك. . .».

وذكر ابن خلدون ما دار في دمشق في تلك الفترة، فقال:

«جاءني القضاة والفقهاء، واجتمعنا في المدرسة العادلية (حيثُ كان ينزل ابن خلدون)، واستقر الرأيُ على طلب الأمان من تيمورلنك على البيوت والأموال والحريم، وشاوروا في ذلك نائب القلعة فأبى عليهم وأنكر وهدَّد بإحراق المدينة، فلم يلتفتوا إليه، ووقع اختيار الناس على القاضي تقي الدين بن مفلح الحنبليّ، الذي اتجه للخروج من باب النصر قرب القلعة، فمنعه نائبها، وحذّره من مغبّة عمله، فلم يأبه له، واتجه إلى «الباب الصغير» حيث دُلّي من السّور، وكان معه شيخ الصّوفية[2].

---

(١) تيمورلنك/٣٠٥/.
(٢) لقاء ابن خلدون وتيمورلنك ص ٧٠.

وعاد إلى المدينة، وقد خدعه تيمورلنك كعادته، عندما قال له: «هذه بلدةُ الأنبياء، وقد أعتقتُها لرسول الله ﷺ، صدقة عن أولادي».

وأخذ ابنُ مفلحٍ، يُثني على تيمورلْنك ثناءً عظيماً، وشرع يُخذِّل الناس عن قتاله، ويكفُّهم عنه، فمال معه بعض الناس، وخالفه بعضهم وهذا ما كان يرمي إليه تَيمورلنك وقالوا:

لن نرجع عن القتال، وباتوا ليلة السَّبت على ذلك... وفي الصَّباح، تغلب رأيُ ابنِ مُفلح، وصمَّمَ على إتمام الصَّلح، وبعبارة أدق «الاستسلام»، وهدد بقتل من يُعارضه...

وكان ابن مفلح، على ما يبدو، يُحاول القيام بالدور الذي قام به ابن تيمية في معركة شقحب، ولكنه ضل السبيل.

فابن تيمية كان يُحرّض الناس على القتال بجميع السبل، ويعدهم بالنصر الذي تحقق فعلاً، أما ابن مفلح، فكان يسير في الاتجاه المعاكس، فقد كان يثبّط الهمم ويدعو إلى الاستسلام، ويثق بوعود تيمورلنك، ويحمل الآخرين على تصديقه، حتى كانت الكارثة...

ولذلك قال الفقهاء: إن الحاكم القادر، وإن كان فاجراً، خير من الحاكم الصالح إن كان عاجزاً، لأنّ فُجور الأول على نفسه، وخبرته للمسلمين، والآخر، صلاحة لنفسه، وعجزه وغباؤه على المسلمين...

وكما قال ابن تغري بردي:

«إنه لو أصغى السُّلطان إلى كلام والده، وأرسَل الأمراء إلى دمشق ليقودوا الدفاع عنها، لاستحال على تيمورلْنك دخولها، لأن أهلها قاوموه بضراوة وهم بدون حاكم، فكيف يكون الحال، لو كان ثمة أمراء شجعان، يوجّهون المقاومة»؟.

وما كاد ابنُ مفلح يعودُ إلى المدينة من زيارته الأولى لتيمورلنك،

حتى قدم رسوله يطلب «الطُقُزات»، والطقزات بلغة القوم معناها «التسعات» لأن طقز تعنى تسعة، ويقصد بها التقدمات، وهي عادة تيمورية معروفة، فهو عندما يدخل أية مدينة «صلحاً» يطلب من أهلها، عربوناً للوفاء والمحبة، تسعة أنواع مما عندهم من المأكل والمشرب والملبس والجواري والعبيد، وما إلى ذلك، فجمع لهُ أهلُ دمشق، تسعةَ أنواعٍ من الحلوىٰ، ومثلها من الفواكه والأطعمة والألبسة، وقام ابن مُفلح وأغنياء المدينة بذلك خير قيام، وحملوا تلك «الطقزات» إلى تيمورلنك، الذي كان يقيم في القصر الأبلق، فمنعهم نائب القلعة من الخروج من باب النصر، أقرب الأبواب إلى القصر الأبلق، فعادوا إلى «الباب الصغير» حيث تدلّوا من السُّور.

وكان يرافق ابن مُفلح عددٌ كبير من الأعيان والعلماء، وكان ذلك يوم السبت.

ووصف ابن خلدون، الذي كان يُرافقهم، ما جرى فقال: «وخرج العلماء وفاءً بما بذلوه من الطاعة، والتقينا بتيمورلنك»، الذي رُفع بين أيدينا، لما في ركبته من الداء، وحُمل على فرسه، وضربت الآلات حتى ارتجّ لها الجوّ، وسار نحو دمشق، ونزل في تربة «منجك»[1] قرب باب الجابية، فجلس هناك، ودخل إليه القضاة وأعيان الدولة، ودخلتُ في جملتهم، فأشار إليهم بالانصراف، وأشار إلى نائبه «شاه ملك» أن يخلع عليهم في وظائفهم...»[2].

فثبَّت قاضي القضَاة محي الدين محمود الحنفي على عادته، وجعله فوق الشّافعي، ولم يولّ شافعياً ولا مالكياً، وقرر القاضي

(١) أنشأها الأمير سيف الدّين منجك وفي سنة ٨٢٦ هـ دُفن فيها حفيده تغري بردي. انظر مختصر تنبيه الطالب ٢١٣، وإعلام الورىٰ لابن طولون ص ٢٢.

(٢) لقاء /٧٧.

شمس الدين النابلسي الحنبلي في وظيفته[1].

وبات العلمَاء في مُخيّمة، وعادوا يوم الأحد، وهم يحملون مناشير بوظائفهم الجديدة التي عيّنهم فيها، كما أرسل معهم «فرماناً»، وهو ورقة فيها تسعة أسطر، تتضمن أمان تيمورلنك لأهل دمشق على أنفسهم خاصّة، وقد قُرىء هذا الفرمان على منبر الجامع الأمويّ.

وتمّ الاتفاق على فتح باب المدينة من الغد، وتصرُّف الناس في المعاملات، على العادة، ودخول أمير من قبله إلى المدينة. . .

٥ ـ لقاءُ تَيمُورلَنْك بابن خلدُوْن وعُلماء الشّام:

وكما فعل في حلب، فقد عقد تيمورلنك عدة جلسات للمناظرة مع علماء الشام، كان لابن خلدون دور بارز فيها، وقد تمت المناظرات بعدما تغلب تقي الدين بن مُفلح، على معارضيه، وأرسىٰ قواعد الاستسلام مع تيمورلنك، وكأن ما جرى مع علماء حلب لم يصلهم، وكان العلماء ببساطتهم يظنون أنهم بالمحاورة يستطيعون التأثير على تيمورلنك، ودفع شره عن المدينة، وكان ذلك كله وهماً وخيالاً. . .

أما العلماء الذين اجتمعوا به، فهم علاوة عن ابن مفلح وابن خلدون:

- ـ محمود بن العزّ قاضي القضاة الحنفي.
- ـ شهاب الدين بن مُحيي الدين الحنفي.
- ـ شمس الدين النابلسي الحنبلي.
- ـ ناصر الدين بن محمد بن أبي الطيب.
- ـ شهاب الدين الحسباني الشافعي.

(١) نزهة النفوس ٢/٨٩.

- ـ صدر الدين المناوي الشافعي، قاضي القضاة في القاهرة.

وقد توجّه هؤلاء إلى ابن خلدون في المدرسة العادلية، وملكوه أمرهم، وذلك لما رأوه من إقبال تيمورلنك عليه، في المرة الأولى.

ويقول ابن خلدون:

«فبتنا تلك الليلة على أهبة الخروج إليه، ثم حدث تشاجر بين الناس في الجَامع الأمويّ، وأثاروا ما وقع من استكانة القضاة لتيمورلنك، والوثوق بوعوده، وبلغني الخبر من الليل، فخشيتُ على نفسي، وبكرت سحراً إلى جماعة القضاة عند الباب وطلبت الخروج، أوالتدلي من السور، فأبوا عليّ أولاً، ثم دلوني من السور، فوجدتُ بطانته عند الباب، ومعهم نائبه شاه ملك، فحيَّيتُهمْ وحيّوني، وقدموا لي مركوباً، وأوصلوني إلى الأمير، فلما وقفت بالباب خرج الإذن بإجلاسي في خيمة تجاور خيمته.

وحين دخل العلماء على تيمورلنك ودخلت معهم، استمروا واقفين خائفين، حتى سمح بجلوسهم، وأخذ يراقبهم خلسةً ويتفرس فيهم.

أما أنا، فقد فاتحته بالسّلام، وأومأت إيماءة الخضوع، فرفع رأسه، ومدّ إليّ يده فقبلتها، وأشار بالجلوس فجلست»[1].

ويُشير السفير «كلافيجو» الذي زار بلاط تيمورلنك بعد ذلك، إلى أن تيمورلنك لم يعط يده قط لتقبيلها، لأن ذلك ليس من عادتهم، بل إنه بنظرهم يعد شيئاً مستهجناً، ولا يجوز عندهم تقبيل يد السيد العظيم، مهما كانت مرتبته.

لذلك فإن ما فعله ابن خلدون يُعدّ عملاً غير لائق، كما أن أحداً

(١) لقاء ٧١ ـ ٧٤.

من العلماء الآخرين، على شدة خوفهم، لم يحاول تقبيل يده، وكانت عادة تقبيل اليد، أو تقبيل الأرض التي يقف عليها السّلطان أو كبار الأمراء، من العادات المملوكيَّة التي كانوا يتمسكون بها، ومع ذلك، فإن السّلاطين، كانوا يُعفون القضاة والعلمَاء من هذه العادة، احتراماً لعلمهم وفضلهم.

أما ابن خلدون، فإنه عندما جلس، وقُدم الطعام للجميع تردّد العلماء في أكله، لشكهم في حلّه، بينما التهمه ابن خلدون بشراهة ـ مصطنعة ـ لإرضاء تيمُورلنك، وصار يكيل له المديح جزافاً، فسرّ بذلك وفضله على الجميع[١].

وقد سلّط تيمورلنك على العلماء نساءه وغلمانه فلم يلتفتوا إليهم وهو يراقبهم خفية.

وفي تلك الأثناء، دخل قاضي القضاة الشّافعي صدر الدين المناوي المصريّ، وكان قد هرب مع السلطان الناصر، فأُدرك في «ميسلون» وسيق إلى تيمورلْنك، فتخطّى الرقاب وجلس من غير سلام أو إذن، في المكان الذي اختاره لنفسه، فوقف له ابن مفلح احتراماً، ثم التفت المناوي إلى تيمورلنك، وقال له:

«أنت خارجيٌّ، وخاطبه بلهجة عنيفة، تشبه لهجةَ ابن تيميَّة مع غازان، فاغتاظ منه، وأمر بإخراجه، فسحبوه من رجله ومزّقوا ثيابه ونزعوا عمامته وضربوه وآذوه ثم سجنوه، وعندما انسحب تيمورلْنك من الشام أخذهُ معه، وعندما وصلوا إلى نهر الزاب في العراق، غرق أو أُغرق رحمه الله.

وكان ذلك الدرس، كافياً لإقناع بقية العلماء بالطريقة المناسبة

(١) عربشاه/١٥٧.

لمخاطبة تيمورلنك، ولا سيما ابن خلدون[١].

وقد دارت بين الفريقين عدة مساجلات، في أكثر من مجلس، وكان تيمورلنك في حواره مع العلمَاء، يكثر من الاستغفار والتسبيح، ولم تكن «سبحته» لتفارقه أبداً، فقال بعضهم:

«قد بُلينا بأمير ظلم الناس وسبَّح»
«فهو كالجزّار فينا يذكر الله ويذبح»[٢]

وقد طلب العلمَاء في أول لقائهم معه، الأمان والصُّلح، أسوةً بأهل حمص، فقال:

«أهل حمص لم يحاربوني، وأهل الشام حاربوني»، فقالوا له إن الذين حاربوك إنما هم السّلطان وجنوده، وقد رحلوا إلى مصرمع جميع أغنياء الشام، ولم يبق في المدينة إلّا الفقراء والعجزة...

وهنا يتجلى ذكاء تيمورلنك ودهاؤه، فقال: هاتوا هدّية.

فقدموا له هدايا فاخرة لم يُسمع بمثلها، وكانت من أفضل ما صنعه أهل دمشق، فقال لهم:

كيف تقولون إنه لم يبق في المدينة إلا الفقراء؟.

ثم استدعى القاضي «عبد الجبار بن النعمان» الذي وصفه ابن عربشاه، بأنه كان «معتزلياً»، ودارت المناقشات، وكان القاضي هو الترجمان...

وكالعادة، كان موضوع علي ومعاوية، ويزيد والحسين، هو الموضوع المفضّل لدىٰ تيمورلْنك في دمشق، كما كان في حلب.

فقال لهم:

(١) عربشاه/١٥٧ ونزهة النفوس ١٠٣/٢ وبدائع الزهور ٣٣١/١ (طبعة بولاق).
(٢) بدائع الزهور ٣٣١/١.

- إن قتل الحسين كان بموافقة أهل الشّام، فإن استحلّوا قتله فهم كفّار، وإن أنكروه فهم عُصاة وبغاة على حكومتهم الشرعية، يعني حكومة يزيد الأموية، ولا شك أن الحاضرين على مذهب الغابرين.

وهنا تدخّل القاضي محمد بن عمر بن أبي الطيّب العثمانيّ، لتغيير مجرى الحديث، وقال إن نسبهُ ينتهي إلى عمر بن الخطاب وعثمان بن عفّان، رضي الله عنهما، وإنّ جدّه الأعلى، توصّل إلى «رأس الحسين» ونظفه وغسله وطيّبهُ ثم دفنه، فلذلك كنّوه بأبي الطيب.

فتعجّب منه تيمورلنْك وقال له: لولا أني ظاهرُ العذر لحملتك على عاتقي، ولكن سترى ما أفعل لك ولإخوانك»[1] وهذا دليل جديد على أن تيمورلنْك لم يكن شيعياً، لأنه لو كان كذلك فعلاً، ما جرؤ هذا القاضي على الانتساب أمامه إلى عمر وعثمان، ولما أكرمه تيمورلنك.

وسألهم مرةً سؤال إعجَاز فقال:

- أيهما أفضل رتبة العلم أم رتبة النسب؟.

فخاف الجميع منه، وأحجموا عن الجواب، لعلمهم بقصده، وهنا تصدّى له القاضي شمس الدين النابلسي فقال:

- درجةُ العلم أعلى من درجة النسب، والدليل على ذلك إجماع الصّحابة على تقديم أبي بكر لأنه أعلمهم وأثبتهم قدماً في الإسلام على عليّ، وإثبات هذه الدلالة من قول الرسول الكريم:

«لا تجتمع أمتي علىٰ ضلالة».

ثم شرع في نزع ثيابه وقال: إن أفضل كلمة تُقال، كلمة حقٍّ لسلطان جائر، فسأله تيمورلنك ماذا تفعل؟ فقال:

(1) عربشاه/١٦٠.

إنّ هناك من يدّعي حبّ عليّ، وهناك من تسمّى بالرافض لرفضه لأبي بكر، فخشيتُ أن يَسمع هذا الكلام عني فيقتلني، فأنا أستعد للشّهادة من الآن.

فقال تيمورلنك: ما أخصمه وأجرأه، وطلب من الحجاب ألاّ يُدخِلوه عليه أبداً.

وهذا هو العالم الثاني الذي تصدى له من علماء دمشق. وفي مجلس آخر، سأل تيمورلنك العلماء:

أيُّهما أفضل: أبو حنيفة أم الشافعي؟ وكان يميل إلى أبي حنيفة، في حين كان الشافعيّ هو المقدَّمُ في دولة المماليك، فقالوا:

- إنَّهُ لا يُفرِّقُ بينهما إلاّ من كان في مُستواهما.

ثم التفت إلى ابن خلدون، وسألَهُ من أين جاء، ولم جاء، وكيف تولّى قضاءَ المالكيّة في مصر ولماذا عُزل، واستفسر منه عن أقسام بلاد المغرب، فأجابه ابن خلدون إجابات شاملة، وقصّ عليه قصته منذ أن دخل الإسكندرية سنة ٧٨٤ هـ، وأثنى على السّلطان الظّاهر برقوق، ثم طلب منه تيمورلنك أن يكتب وصفاً دقيقاً لبلاد المغرب كلها، فكتب له ابن خلدون ما طلب، وقدم له هديةً، وهي مصحف وسجادة وقصيدة البردة للبوصيري، وبعض الحوليات، قبلها منه، ثم قال له ابن خلدون:

لي اليوم أربعون سنة أتمنى لقاءك، فقال له الترجمان ولِمَ؟ فقال: لأنك سلطان العالم وملك الدنيا، وما أعتقد أنه ظهر في الخليقة منذ آدم لهذا العهد ملك مثلك، ولست أقول جزافاً فإني من أهل العلم.

ثم شرع ابن خلدون في تعظيم الترك - قوم تيمورلنك - لانتزاعهم الملك من الفرس، ولا ندري ما علاقة تيمورلنك بالفرس والروم، ثم قال:

- إنه لا يُساوي ملوك الترك أحدٌ في العالم، سواء كسرىٰ أو قيصر أو بُخْتَنصَّر أو الإسكندر. . .

وأخيراً، أدلى تيمورلنْك بدلوه في النقاش، ليظهر مدى علمه، وصدَّقه ابن خلدون فيما قال، بل واستعجب من علمه وعظمته، فسُرَّ تيمورلنْك، وأصبح ابن خلدون بذلك من المقربين. . . وكان ممّا قالَهُ تيمُورلنك لابن خلدون:

أراك قد ذكرت بختنصَّر مع كسرىٰ وقيصر والإسكندر، ولم يكن في عدادهم، لأنّهم ملوكٌ أكابر، وبختنصَّر، قائد من قوّاد الفرس، كما أنا نائب من نوّاب «صاحب التخت»، يعني الملك الأسمى الذي عيَّنه تيمورلنك.

ثم قال تيمورلنك:

- ومن أي الطوائف بختنصَّر؟ فقال ابن خلدون: للناس فيه خلاف، فقيل من بقية ملوك بابل، وقيل من الفرس الأُوَل من ولد «منوشهر»، وهنا انتسب تيمورلنك من جهة أمّه إلى منوشهر هذا، فوافقه ابن خلدون وأثنى على علمه وفهمه وسعة اطلاعه[1].

ثمّ قال تيمُورلنْك إنَّهُ يميل إلى القول بأنّ بختنصَّر فارسيّ، وقال ابن خلدون إنّه يرى أنّه بابليّ، وانقطع النقاش بينهما عندما جاءه الخبر بأن أبواب دمشق قد فتحت.

وفي لقاء آخر، التمس ابن خلدون من تيمورلنك أن يكتب له كتاب أمانٍ، لأنّه غريبٌ مرتين: مرة عن وطنه المغرب، ومرَّةً عن وطنه الثاني مصر، فأجابه تيمورلنك إلى ما طلب، وأقام ابن خلدون خمسةً وثلاثين يوماً في معسكره. . .

(1) لقاء/٧٦.

ثم سأله أن يكتب الأمان أيضَاً لمن خلّفهم المصريّون وراءهم في دمشق، من القرّاء والموقّعين والكتّاب والعمال، فكتب لهم كتاباً بذلك، فأخذه ابن خلدون وانصرف إلىٰ منزله.

ولما اقترب موعدُ رحيل تيمُورلنك عن دمشق، دخل عليه ابن خلدون، ودار بينهما حوَار غريب، يكشف جانباً من شخصية تيمورلنك، وفي ذلك يقول ابن خلدون:

«التفت إليّ وقال لي: عندك بغلة هنا؟ قلت نعم، قال: وتبيعها؟ فأنا أشتريها منك، فقلتُ: أيَّدك الله مثلي لا يبيع مثلك أبداً وإنما أنا أخدمك بها، فقال: إنما أريد أن أكافئك بها بالإحسان، وحُملت البغلة إليه وأنا معه في المجلس ولم أرها بعد ذلك. . . وبعد انصرافي إلى مصر بعث إليّ بثمنها مع رسول كان من جهة السلطان فرج عنده»[1].

ومن يقرأ هذه الحادثة عن تيمورلنك، لا يشكّ في أنّه أحد الأولياء الصَّالحين، لزهده وورعه وبساطته. . . وربما أدرك بثاقب نظره، أنّ عالماً مثل ابن خلدون، ربّما سجّل له سيرة عطرة، تنفعه في قابل الأيام، لكن ابن خلدون كتب إلىٰ سلطان المغرب، يسخر من علم تيمُورلنك وثقافته ويحط من شأنه. . .[1].

٦ ـ تيمُورلنْك يَبيعُ دمشق:

في الوقت الذي كانت المناظرات تدور فيه بين ابن خلدون وتيمورلنك، وفي الوقت الذي كان فيه ابن خلدون يكيل المديح لتيمورلنك، كانت الأخطار الرهيبة تزحف على دمشق منذرة بحلول الكارثة العظمىٰ.

وكان ابن مُفلح قد تعهد لتيمورلنْك بأن يجمع له من أهل دمشق،

(1) لقاء/٨٤.

ألف ألف دينار، على سبيل الهَديَّة والترضية، مقابل انسحاب تيمورلنك من المدينة.

وحتى نعرف قيمة هذا المبلغ الحقيقية في ذلك الوقت نقول إن الدينار كان يساوي في المتوسط ثلاثين درهماً، وسنقدم فيما يلي أسعار أهم المواد الغذائية والألبسة، لمعرفة قيمة المبلغ المذكور:

- قنطار السمن (البلدي طبعاً)	١٢٠ درهماً أي أربعة دنانير
- قنطار السكر الأبيض	٣٠٠ درهم أي عشرة دنانير
- قنطار الفستق الحلبي	٢٥٠ درهماً أي حوالي ثمانية دنانير
- قنطار زيت الزيتون	خمسون درهماً فقط
- قنطار الدبس	أربعون درهماً
- رطل اللحم	درهمان إلى ثلاثة
- ثوب القطن البعلبكي	ستون درهماً
- ثوب القطن العَادي	ثلاثون درهماً
- ثوب الصوف البندقي	ثلاثمائة درهم[1]

وبهذا، نستطيع أن نعرف معنى جمع مليون دينار في ذلك الوقت ومع ذلك فقد جُمع المبلغ من غير مشقّة، لكثرة أموال الناس...

ثم حمل ابن مفلح وأعوانه المال، ووضعُوه أمام تيمورلنك، بعدما قدموا له «الطقزات»، وهم يظنون أنهم يُحسنون صنعاً، فلما عاينه تظاهر بالغضب الشديد، ولم يرض بالمال، وطرد ابن مفلح وجماعته ووكّل بهم من يسومهم سوء العذاب، فكان هذا أول الغدْر، لكن أحداً لم ينتبه لذلك، وتابعوا رحلة الاستسلام مع تيمورلنك وأعوانه حتى النهاية.

وكان سبب «غضب» تيمورلنْك، قلة المال المجمُوع، هذا في

(١) السلوك ٣/١١٠٠.

الظاهر، وأما في الحقيقة، فإن سرعةَ جمع المال جعلته يتأكّد أنّ القومَ أغنياء وأن بوسعهم جمع أضعافه، فطالبهم بجمع ألف تومان، والتومان عبارة عن عشرة آلاف، فيكون المجموع العام ببساطة عشرة ملايين دينار من الذهب، فقط...

ولتسهيل عملية الجمع الجديدة، فرض مجموعة من الجباة الظلمة، من أعوانه ومن أراذل دمشق.

فجعل نائبه شاه ملك، مسؤولاً عاماً عن جميع عمليات الجباية، وكان مركزه فيما يسمى اليوم بحيّ «العمارة» خارج باب الفراديس.

- أما رئيس الجباة فيدعىٰ «الله داده» وقد اتّخذ من دار «ابن مشكور» داخل الباب الصغير مركزاً لعمليّاته.

- وتمركز بقية الجباة في دار الذهب[1]، وهم:

أ - من أعوان تيمورلنْك: - الخواجه مسعُود السّمناني.
- مولانا عمر.
- تاج الدين السّلماني.

ب - أما الجباة من أراذل دمشق، فكانوا كثيرين، منهم:
- صدقة بن الجابي.
- ابن المحدث.
- عبد الملك التكريتي.

وغيرهم، بالإضافة إلى دواوين تيمورلنك ومتولي حساباته.

وقد عمد ابن مفلح إلى استعمال «الفَلْقة» لإرغَام الناس على الدفع، وقد استمرت عمليات الجباية ستة أسابيع...

(١) تقع دار الذهب شرقي حمام نور الدين الشهيد، مقابل دار الحديث التنكزيَّة، وقد زالت اليوم. الدارس ١/١٢٣.

وكان بعض جنود تيمورلنك قد عمدوا إلى أموال الناس فاغتصبوها فأمر تيمورلنْك بصلبهم في سوق «الخريزاتيين» في رأس سوق البزوريين (البزورية والخريزاتية اليوم)، وقد خُدع الناس بذلك، وصاروا يدفعون عن طيب خاطر، أملاً في أن يكفّ تيمورلنك شرَّهُ عنهم حال ما ينتهي من الجمع، وهو ما كان يُشيعه عنه ابن مفلح وأعوانه.

وقد وضع ابن مفلح وجماعته خطة شاملةً لاستخراج المبلغ المطلوب.

- فقرروا أخذ أجرة جميع مساكن دمشق لمدة ثلاثة شهور مقدماً.
- وألزموا كل إنسان، صغيراً أو كبيراً، حرّاً أو عبداً، ذكراً أو أنثى بدفع عشرة دراهم.
- وأُلزم نظار الأوقاف بدفع مبالغ مُعيّنة، بحسب قيمة الوقف وريعه.
- وأخذوا من أوقاف الجَامع الأمويّ مائة ألف درهم
- وألزموا كل النظار والمسؤولين عن جميع المساجد[1] والجوامع والمدارس والمشاهد والربط والزوايا والخوانق والترب بدفع مبالغ مُعينة حددوها لكلٍ منهم.

وعلى سبيل العلم، فقد كان في دمشق آنذاك، داخل السور وخارجه على وجه التقريب:

- ٤٠٠ مسجد.
- ٢٤ جامعاً.
- ١١٤ مدرسة للفقه.
- ٣٠ مدرسة للقرآن والحديث والطب.

(١) المساجد صغيرة لا تقام فيها الجمعة، بعكس الجوامع، وعلى هذا فكل جامع مسجد، وليس كل مسجد جامعاً.

- ١٤ كنيسة.
- ٢١ رباطاً.
- ٢٧ زاوية.
- ٢٧ خانقاه.
- ٧٨ تربةً.

بالإضافة إلى عدد كبير من المشَاهد والمقامات[1].

وقد نزل بالناس من جرّاء عمليات الجمع بلاء عظيم، وكان من الأمور المضحكة المبكية التي رافقت عمليات الجمع، تلك «الفلْقةُ» التي لم تفرق بين الكبير والصغير، فكانت أعظم امتهان لكرامة الإنسان عرفته دمشق في تاريخها.

وأخيراً، وبعد ما ينوف على الأربعين يوماً من العذاب والهوان، جُمع المبلغ المطلوب، بعدما أصبح أهل دمشق فقراء لا يملكون شروى نقير.

وحُملت الأموال إلى تيمورلنك، وكانت كما أمر: عشر آلاف ألف دينار (عشرة ملايين)، ووضعها ابن مُفلح أمامه وهو ينتظر الفرج برضاء تيمورلنك ورحيله كما وعد، لكنه لم يكن قد أفرغ بعد كل ما في جُعبته من حقد ولؤم وخبث، فقال بكل سخرية وهو يعاين الأموال:

«هذا المال بحسابنا إنما هو ثلاثة آلاف ألف، وقد بقي عليكم سبعة آلاف ألف، وظهر أنكم قد عجزتم».

ولم يُبيّن تيمورلنك، إن كان الباقي بحسابه، أم بحساب أهل

(١) يمكن مراجعة الدارس في تاريخ المدارس للنعيمي، بجزأيه، كذلك انظر: الأعلاق الخطيرة لابن شداد، القسم الأول/الجزء الثاني ١٩ - ٣٢، والجزء الثاني، القسم الأول ٩٢ - ١٦٦ وما بعد.

دمشق... فكادت روح ابن مفلح تزهق من الغيظ، وهو يرى نفسه قد أغضب أهل دمشق، وأغضب تيمورلنك، ولم يُرضِ أحداً، مع ما قاساه من الأهوال والشدائد، وندم حيث لا ينفع الندم، ولم تكن أمامه أية فرصة للتراجع، وكان عليه أن يسير في لعبة المساومة حتى النهاية...

وعندما أدركَ تيمورلنْك، أنه لم يبق في المدينة درهم ولا دينار، عمد إلى مجموعة من الطلبات واحداً بعد آخر...

فقد طلب من ابن مُفلح وجماعته أن يُحضروا له جميع مخلَّفات الجيش المصري من المال والسلاح والمتاع والأنعام، جليلها وحقيرها... فأُحضرت جميعها، وقد غلب على الظن أنّ هذه هي آخر طلبات تيمُورلنك.

فلما تأكّد أنّه لم يعد للمصريين شيء في دمشق، طلب إخراج جميع أموال التجّار الذين هربوا من المدينة قبل قدومه، فسارعوا في حمل ذلك كله إليه.

وعندما يفقد الإنسان كل شيء مرةً واحدةً، تتكشَّفُ أخلاقه على حقيقتها، وهذا ما حصل بدمشق.

فقد صار الناسُ الذين صُودرت أموالهم في عمليات المصَادرة السَّابقة، ينمّون لجباة تيمورلنك عن أماكن وجود الأموال العائدة للتجّار الهاربين، على مبدأ المثل العاميّ «إذا عمّت المصيبة خفّت».

وهذا مما ساعدَ الجباة على الوصول إلى أماكن وجود الكنوز والأموال، التي أخفاها أصحابها قبل مغَادرة دمشق، حتى أتوا على ما لم يكونوا يحلمون بمثله، ولم يبق للتجّار شيء في دمشق.

وبعد أن تأكّد تيمورلنك أنه أتى على جميع أموال التجّار، ألزَم أهل البلد، بإخراج كل ما لديهم من الخيل والبغال والجمال والحمير،

فأُخرجت جميعاً، وكانت تربـو على اثني عشر ألف رأس.

ولم تتوقَّف الأوامر والمطالبات، عند ذلك الحدّ الذي فاق كل التصوّرات، بل طلب بعد ذلك، تسليم جميع الأسلحة التي بحوزة السكان، فامتثلوا، وساعد الوشاةُ في ذلك أتمّ مساعدة.

وهكذا حصل تيمورلنك على كل شيء، وخسر أهل دمشق كل شيء، حتى قال أحد المؤرخين:

- إن تيمورلنك باع دمشق من أهلها ثلاث مراتٍ، في كلّ مرّةٍ بمبلغٍ كبير من الذهب والفضّة...»[(١)].

٧ - سُقُوط القلعة:

في الوقت الذي كانت تتمّ فيه عمليّات المصادرة في دمشق، كانت قوات تيمورلنك تحاصر القلعة، وكانت بطولات المدافعين عنها تفوق الوصف، ولم تبدأ الكارثة الحقيقية بدمَشق، إلاّ بعد سُقـوط القلعة...

وقد يبدو غريباً أن نتحدث عن البطولات وسط الهزائم، ولكنّ الحقيقة يجب أن تقال دوماً، حلوةً أو مُرّة...

ولقد تعرّضنا طويلاً للأخطاء الفادحة التي وقع فيها السّلطان برقوق وابنه فرج والمماليك وابن مُفلح وغيرهم، فرأينا من المناسب أن نقدّم الآن، الوجه الآخر لدمشق، والذي ضـاع وسط مرارة الذل والهزيمة

---

(١) عن المصَادرات والجبايات انظر:

- عربشاه/١٥٩ وما بعد - لقاء/١٥٢ - ١٥٥ - بدائع الزهـور ١/٣٣٣ - النجوم الزاهرة ١٢/٢٤١ - السلوك ٣/١٠٤٩ - إنباء الغمر ٢/١٣٨ - نزهة النفوس والأبدان ٢/٨٨.

والعار، ذلك الوجه المشرّف المشرق، الذي تمثل في حماة الديار، حماة القلعة.

وقلعة دمشق هي التي كانت تحميها دوماً من الغزاة والطغاة، وفي العصر المملوكي، أصبح السّلطان وحده، صاحب الحق الأوحد في تعيين نائب القلعة، أي حاكمها، ولم يكن لنائب دمشق معه، أية سُلطة أو نفوذ[1].

وكانت القلعة، قد استعصت من قبل على جيوش المغول بقيادة «غازان» التي اجتاحت دمشق سنة ٦٩٩ هـ بعد معركة مجمع المروج.

وقد خاضت القلعةُ في تلك الأيام حرباً ضروساً ضد المغول الذين كانوا يرمون عليها «بالمجانيق» من الجامع الأمويّ، وقد استطاع المدافعُون عنها بقيادة نائبها «أرجواش»، تدمير المجانيق وقتل المغول، الأمر الذي أدى إلى خروجهم من دمشق، وفي قلوبهم لوعة من قلعتها...[2].

ويبدو أنّ ذكريات ذلك النصر، بقيت في أذهان نائبها الجديد الشّجاع، فصمّم علىٰ المقاومة.

أمّا تيمورلنك، فقد بدأ يضعُ الخطط لاحتلال القلعة منذ اليوم الأوّل، للصّلح المزعوم، الذي أبرمه مع «ابن مفلح».

ويقُول ابن خلدون إنه ما إن استقرَّ تيمُورلنْك في إقامته في تربة منجك، حتى استدعى أمراء دولته المختصّين بأمور البناء، فأحضروا المهندسين، وتناظروا في مجلسه طويلاً، علّهم يعثرون «بالصّناعة، على

---

(١) انظر كتابنا «دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ص ٥٢.

(٢) ذكر مؤرخ الشام الشيخ علم الدين البرزالي وقائع الحصار مفصّلة في تاريخه «المقتفى» الجزء الثاني الأوراق ٨ ـ ١٧.

منفذ للمياه المحيطة بالقلعة، لكنهم أخفقوا في ذلك، مما اضطر تيمورلنك إلى أن يعهد إلى أحد قادته المسمّى «جيهان شاه» بمهاجمة القلعة[1].

وكان يتولى الدفاع عنها، نائبها «يَزْدار» وهو من المماليك، يُساعده اثنان من خبراء الأسلحة والذخيرة هما شهاب الدين الزردكاش الدمشقي، وشهاب الدين الزردكاش الحلبي بالإضافة إلى أربعين رجلاً، معظمهم من الغلمان الذين لا يعرفون شيئاً عن فنون القتال، كما ذكر ابن تغري بردي نقلاً عن شاهد عيان كان في القلعة.

ولقد كانت القذائف الموجهة من القلعة، تعرقل تقدم قوات تيمورلنك، مما اضطره للقيام باستعدادات هائلة لاحتلالها.

فقد استطاع أن يصرف الماء المحيط بها، ثم نصب حولها ستين منجنيقاً، استغرق نصبها بضعةَ أيام، كما أقام ثلاث مصاطب تشرف على أسوارها.

وقد نُصبت المنجنيقات في الجامع الأمويّ ـ كما فعل غازان من قبل، وفي المدرسة النورية وحكر السّماق والعقيبة وسوق ساروجة[2]، وهدمت جميع البيوت المحيطة بالقلعة من الجنوب والغرب.

واندفعت قوات تيمُورلنك نحو القلعة من جميع الجهات، وكان أعنف هجوم عليها من الشمال والغرب.

---

(١) لقاء ابن خلدون وتيمورلنك/٧٧.

(٢) حكر السمّاق، حول جامع تنكز إلى القنوات وقد سبق تعريفه، والمدرسة النورية في سوق الخياطين، وفيها ضريح نور الدين، والعقيبة حي يقع شمال المدينة قرب مقبرة الفراديس، وسوق ساروجة بناه الأمير صارم الدين صاروجا الذي كان من معاوني تنكز نائب الشام. الدرر الكامنة ٢/٢٩٦. وإعلام الورى /٥٩.

وقد استمات المدافعون عنها، إلى درجة أعجزت تيمورلنك، وحيَّرتْهُ.

ويذكر المؤرخ الفارسي «شرف الدين»، أن جنود تيمورلنك، نسفوا الطارمة، وهي أعلىٰ برج في القلعة، وأضرموا النار في قسمها الأعلىٰ، وفتحوا ثغرة واسعة، سرعان ما سدّها المدافعون.

ثم وقعت قطعة من السور، فقتلت عدداً كبيراً من جنود تيمورلنك، وفلّت عزيمة الآخرين. . .

واستمرّ الدفاع المستميت. . .

وبنى جنود تيمورلنك قلعة هائلة من الخشب، ما إن انتهت حتى قذفها رجال القلعة بالنفط، فاحترقت عن آخرها.

ثم بُنيت أخرى، وصاروا يقاتلون منها. . . واستمرّ القتال الضاري زهاء الشهرين، ثلاثة وأربعون رجلًا، معظمهم من الأحداث، يواجهون تيمورلنك وجنوده طوال شهرين كاملين، وهم ينتظرون الفرج من سلطانهم الناصر فرج. . .

ولما أعياهم الحال، وكثرت الجراح، وفُتحت الثغرات في الأسوار، وانقطع الأمل، وعظم الخطب، لم يجدوا بداً من طلب الأمَان، فأمّنهم تيمورلنك، ونزلوا إليه، يوم الجمعة ٢١ رجب - ٨ آذار[1].

---

(١) عن حصار القلعة انظر:

لقاء /١٤٨ ـ ١٥٠، والنجوم ٢٤٣/١٢، ونزهة النفوس ٨٩/٢، وعربشاه ١٦٣ - ١٦٤ الذي ذكر أن الحصار استغرق ٤٣ يوماً، والسلوك ١٠٤٩/٣ الذي جعل الحصار شهراً واحداً والصحيح ما ورد أعلاه من أنه استمر من ٢٣ جمادىٰ الأولى حتى ٢١ رجب.

وكان أول ما فعله أن هدم القلعة، وسوّاها بالأرض، ونظراً لكثرة الخسَائر التي وقعت في صفوفه، فقد قرر الانتقام من أهل دمشق، ومن حُماةِ القلعة، فكان انتقامه مساوياً لغيظه وحقده.

وقد بلغ غيظ تيمورلنك حداً جعله ينزل بالشهاب أحمد الزردكاش الحلبي، عقوبة لم يُسمع بمثلها.

فقد كان هذا البطل، قد ناهز التسعين من عمره، وقد انحنى ظهرهُ، فلما رآه حلف ليُعذبنّه عذاباً شديداً على كبر سنّه، فقيده فوق ركبته بقيد زنته سبعة أرطال ونصف بالشّامي، وأخذه معه، وبقي يرسف في قيوده حتى هلك تيمورلنك، بعد أربع سنوات. . . وهذا أمرٌ لم يُسمع بمثله. . .

لقد كان حُماة القلعة، مجموعة من بين مئات الأبطال الذين دافعوا عن الأوطان بصمت وشجاعة وبطولة، ثم سقطوا دون أن يشعر بهم أحد. . .

وهكذا ضاعت البطولات الرائعة في سواد الهزيمة ومرارتها. . .

وقد شاءت الأقدار، أن يُتوَّج سُقوط القلعة، ومن ثم سقوط المدينة كلها، بفصل مُضحك، لم يكن لتيمورلنك فيه يدٌ هذه المرة.

فقد وصل إلى دمشق رسول من القاهرة يدعى (بَيْسق الشيخيّ)، يحمل رسَالةً من الناصر فرج إلى تيمورلنك، وقد كان مما ورد فيها:

«. . . لا تحسبْ أننا جزعنا منْك، وإنما خاننا بعض مماليكنا، فقارنّا بين خطرك، وخطرهم، فرأيناك أهون الخطرين وأحقر. . . ثم يقول السّلطان الناصر:

وايم الله لنكرنّ عليك كرّ الأسد الغضبان، ولنوردنّ منك ومن عسكرك موارد الأضغان، ولنحصدنّكم حصد الهشيم، ولندوسنكم دوس

الحطيم، ولنضيقنّ عليكم سُبل الخلاص، فلتُنادُنّ ولات حين مناص».

وكلام فارغ على هذا المنوال، وكما قال ابن عربشاه: «كلام كالملح على الجرح»...

وقد كان الأوْلى، استمالةُ خاطر تيمورلنْك، وإرسال أطلمش، لعلّه يخفف من حدة انتقامه، لكن الأمر الغريب أن أمراءَ مصر، لم يفعلوا ذلك، إلاّ بعد حريق دمشق وخراب البصرة...[1] وكما قال الشاعر:

وجادت بوصل حين لا ينفع الوصل

وقد ذكر بيسق الشيخي مقابلته لتيمورلنك، فقال:

«إنه بعدما قرىء الكتاب عليه قال لي: قل الحق: ما اسمك.

ـ قلت بيسق، قال:

ـ ما مدلول هذا اللفظ المزري؟.

ـ قلت له: يا مولانا، لا أعرف.

ـ فقال: أنت لا تعرف مدلول اسمك؟.

ـ ثم قال لي:

لا عتب عليك، وإنما اللّومُ على من أرسَلك، ولا حرج عليه أيضاً لأن هذا مبلغ علمه ومنتهى فهمه...

وبعد ذلك أمرني بالتوجّه إلى القلعة مكان العزّة، فذهبت فوجدتها قد دُكّت دكاً... ثم أتيتُه وذكرت له ما رأيتُه فقال:

ـ إن مرسلك أقلُّ من أن أجامِلَه، وأذلُّ من أن أُراسله، ولكن قل له:

ـ إنّي واصل إليه على عقبك، فلْيُشمِّرْ للقرار، أو يستعدّ للفرار»[2].

---

(1) عربشاه/١٦٨.

(2) المصدر السابق ١٧١.

وهذه الألفَاظ الكبيرة التي ملأت كتاب الناصر المهزوم لتيمورلنك المنتصر، تذكر بما يحصل عادة في الهزائم الكبرىٰ، حينما يُحاول المنهزمون دائماً، تعويض هزائمهم في ساحات القتال، بانتصارات لفظية طنانة، تصاغ شعراً ونثراً وغناءً...

٨ ـ دمشق تعيش أيام (سادوم وعامورة)[1]:

لقد دمَّر تيمورلنك دمشق، كما دمَّر مدناً كثيرة من قبل ومن بعد، لكنّ الوضع في دمشق، اتخذ طابعاً مأساوياً وصل فيه الألم والندم والقهرُ والذلّ إلى المدى الأبعد.

ففي حلب، مثلاً، قاوم السكّان بعضَ مقاومةٍ، وهاجموا جحافل تيمورلنك ثم ارتدوا إلى المدينة، وفي دلهي، قتل الهنودُ عدداً كبيراً من جنود تيمورلنك، ورفضوا الخضوع له، كما رفضوا تقديم الهدايا والطقزات، وعندما أحسُّوا بغدره، عمدوا إلى نسائهم وأولادهم فذبحوهم بأيديهم، حتى لا يقعوا في أيدي الغزاة... ثم انقضوا على تيمورلنك وجنوده، وكان ما كان من قصص البطولة، فقد لقنوا تيمورلنك درساً قاسياً، وكالوا له الصَّاع صاعين، ثم أعادوا بناء ما هدمه واندملت الجروح، وأصبحت ملاحم البطولة تُروىٰ في الهند جيلاً بعد جيل ويتغنى بها الأجداد والأحفاد على توالي العصور، وقد نُسجت حولها عشرات الأساطير التي ألهبت حماسة القوم، وجعلت غزو تيمورلنك لبلادهم، هزيمة ساحقة له، على الرغم من الخسائر الفادحة التي تعرَّضوا لها، ولذلك فقد غادر تيمورلنك بلادهم، وهو يكادُ يموت من الغيظ، لأن الهنود لم يقعوا في حبائله، أو ينخدعوا بمعسول كلامه،

---

(1) مدينتان في فلسطين نزل بهما العذاب الذي أصبح مضرب المثل. انظر المنجد/٣٥٢/ في الأعلام.

وباختصار فقد عاد تيمورلنك من الهند، يجر أذيال الهزيمة رغم احتلال عاصمتهم، كما عاد بعد ذلك «نابليون بونابرت» من غزوه لروسيا ودخوله موسكو. . .

أمّا في دمشق، فكان الأمر مختلفاً تماماً:

- فقد ألقى الناسُ السلاح بأيديهم إلى الأرض. . . .
- وفتحوا لتيمورلنك أبواب المدينة بعدما عجز عن دخولها. . .
- وقدّموا له الطقزات صاغرين.
- ثم جمعوا له ألفَ ألفَ دينار ذهباً. . .
- وبعد ذلك جمعوا له عشرة ملايين أخرىٰ. . .
- ثم سلموه أموال المصريين. . .
- وبعد ذلك سلّموه أموال التّجار الهاربين.
- ثم سلّموه الأنعَام. . .
- وأخيراً سلّموه كل ما لديهم من السّلاح والمتاع.
- وصار بعضهم ينم على بعضهم الآخر. . .
- وتقرّب إليه نفر من أهل المدينة من العلماء والأراذل على حد سواء للحصول على رضاه. . .
- لقد قدّموا كل شيء طمعاً في رضاه ورحمتـه، فسخط الله عليهم وأسخط عليهم الناس، لأنهم تقربوا إلى تيمورلنك بسخط الله. . .

لقد كان شعور أهل دمشق بالألم والمرارة والندم أقسىٰ بمئات المرات من عذاب تيمورلنك الذي نزل بساحتهم، إن الذل الذي لحق بهم كان مما يصعب تصديقه أو نسيانه بسهولة، ولا شك أن حُماة القلعة، على ما كابدوه من العذاب طوال الشهرين، كانوا أسعد حالاً من إخوانهم في دمشق، لأنهم أدوا الرسالة، وذادوا عن الأوطان حتى الرمق الأخير، وتركوا وراءهم قصصاً تروى على مر العصور. . .

أما العذاب الحقيقي الدائم فهو عذاب المنافق، الذي يبيع كل شيء، حتى نفسه، ثم يكتشف أنه لم يحصد سوى الندم والعار. . .

لقد مات ابن مفلح قهراً بعد رحيل تيمورلنْك مباشرةً، وكان كثير من أمثاله يتمنّون الموت دون أن يجدوه.

وبدلاً من قصص البطولة، صار الأجيال يتناقلون قصة «الخديعة الكبرىٰ» التي بقيت وصمة عار في تاريخ دمشق إلى الأبَد. . . ولعلّ هذا ما جعل اسمها يرتبط بتيمورلنك، دون سواها من مدن الشّام. . .

وتوالت الأحداث في دمشق. . .

فإنه عندما دخلها «شاه ملك» زعم أنه النائب، وتوجّه مع أتباعه إلى الجامع الأموي، حيث رفعوا البسط وستروا بها الشرفات، ثم عمدوا إلى لعب النرد، والضرب بالطنابير في حرم الجامع، مما اضطر المصلين إلى الصلاة في صحنه الشمالي. . .

ثم انقطعت صلاة الجمعة فيه، ولم تَقُم بعد ذلك إلا مرةً واحدة يوم ١٩ جمادىٰ الآخرة، حيث دعا فيها الخطيب للسّلطان محمود[1]. ولولي عهده ابن الأمير تيمورلنك.

ثم تحول الجَامع، كما بينا إلى ميدان لرمي المنجنيق، ومُنعت الصّلاة نهائياً. . .

فصلى الناس بعد ذلك في الخانقاه السّميساطية، شمال شرقي الجامع، وتعطلت معظم الجوامع من إعلان الأذان، وإقامة الصّلاة، وانشغل الناس عن الدين بما هم فيه من أمر الدنيا.

---

(١) قدمنا بأن تيمورلنك، عندما استلم السلطة في سمرقند، اضطر لتنصيب أحد أفراد قبيلة «الجغتاي» سُلطاناً، لأنهم كانوا بمثابة قريش من العرب، واتخذ لنفسه لقب «الأمير» فقط.

ثم وقعت الواقعة . . .

ذلك أنّ تيمورْلَنْك، ما إن استحوذ على كل شيء في دمشق، حتى قبض على ابن مفلح، الذي لم يفلح، وألزمه وأعوانه، بأن يكتبوا له أوراقاً بجميع خطط دمشق، وحاراتها ودروبها ودورها، فقدموا له جميع ما طلب، وهم لا يدرون ماذا ينتظرهم، أو ينتظر مدينتهم . . .

وبعد سُقوط القلعة، لم يعد يمنع دمشق من تيمورلنك مانع، وحلّت ساعةُ تصفية الحسابات القديمة . . .

فقد وزَّع تَيمُورلَنْك الأوراق التي كتبها ابن مُفلح على أمرائه. وقسّم المدينة بينهم . . .

ودخل الأمراء المدينة، وسار كل منهم إلى «الحارة» التي أقطعت له، وصارَ يجمع سكانها، ويُطالبهم بالمال.

فكان الرجل يوقَفُ على باب داره في أزرى هيئة، ويطالب بما لا يقدر عليه من المال، فإن تعذّر عليه حمل المال، نزل به العذاب الأليم، الذي لا يمكن وصفُه.

ـ وكان الضرب أهون أنواع العذاب . . . فإن لم يُجد نفعاً، يُعمد إلى «عصر أعضائه».

ـ أو يطلب منه المشي في النار . . .

ـ أو يُعلق منكوساً.

ـ أو تُربط أطرافه وتُوضع على أنفه خرقة فيها رماد، حتى تكاد روحه تخرج، فيترك حتى يستريح.

ثم تُستأنف العقوبة من جديد.

هذا فيما يتعلق بالرجال . .

أما النساء والصبيان فكان لهم شأن آخر.

فقد كانت تؤخذ نساء الرجل وأولاده وبناته، ويوزعون علىٰ رجال الأمير، فيشاهد الرجل، وهو تحت العذاب، امرأته وهي توطأ، وابنته وهي تُفتض، وولده وهو يُلاط به، فيصرخ مما هو فيه من العذاب ونساؤه وأولاده يصرخون مما نزل بهم، دون أن يستطيع أن يفعل لهم شيئاً لانشغاله بما هو فيه، وهو نفس ما حصل في حلب . . .

وكان ذلك كله يجري ليـلاً ونهاراً، وعلى رؤوس الأشهاد، من غير تستر أو احتشام.

ثم إذا قضوا أوطارهم من النساء والصبيان، أعادوا طلب الأموال، وعادوا إلى العذاب من جديد، وقد تلطخت الأجساد بالدماء . . .

ويبدو أن جنود تيمورلنك، ابتكروا في دمشق أنواعاً جديدة من العذاب، لم يفعلوا مثلها في حلب . . .

فقد كانوا يشدون رأس الرجل بحبل ويلوونه حتى يغوص في جسمه ويموت.

ـ أو يضعون الحبل على كتفيه، ويديرونه من تحت إبطيه ويلوونه بعصا حتى تنخلع كتفاه.

وفيهم من يربط إبهام اليدين من وراء الظهر، ويُلقى المعذب على ظهره، ثم يذر الرماد في منخريه، ويعلق من إبهامه في سقف الدار، ثم تُضرم النار من تحته، فإذا سقط فيها سحبوه حتى يسترد أنفاسه، ثم يُعيدون عليه العذاب من جديد حتى يدركه الموت . . .

وقد دخلوا مرة دار أحد الأعيان في زقاق العجم، فوجدوا فيه من النفائس ما أذهلهم.

فقبضوا على رب الدار وشدوه وثاقاً، ثم علقوه من رجليه وأتوا على ما في الدار . . . ثم جلسوا يأكلون ويغنّون . . .

وبعدما استخفهم الطرب، طمعوا في المزيد من السرور والانشراح، فعمدوا إلى الرجل، وسقوه الماء والملح، ثم ألقموه الرماد والكلس، وهم يضحكون ويرقصون ويغنون. . .

وقد اشترك في عمليات التعذيب، جميع جنود تيمورلنك المسلم منهم، قبل المجوسي(١).

وبعد أن أتىٰ الأمراء على المدينة، ولم تعد لهم بها رغبة أصدر تيمورلنك أمره للجنود «بالنهب العام». . .

فدخلوا المدينة يوم الأربعاء، آخر رجب ـ ١٦ آذار وبأيديهم السيوف مشهورة، فنهبوا ما بقي من الأثاث وسبوا معظم نساء دمشق، وساقوا الأولاد والرجال، وتركوا مَنْ دون الخمس سنوات، وربطوا الجميع بالحبال.

ثم أضرموا النار في المنازل، وكان يوماً شديد الريح، فعمّ الحريق المدينة بأسرها، وارتفعت ألسنةُ اللهب إلى عنان السَّماء. . . واستمرت النار مندلعةً لمدة ثلاثة أيام بلياليها. . .

وأتت النار علىٰ مفخرة دمشق وقبلتها: الجامع الأموي، فأزالت النار محاسنه التي كان يتيه بها على الجوامع الإسلامية(٢). . . ، ولم يبق منه إلا جدره، ومأذنة العروس مع أنها كانت من الخشب. . .

وكان الذي أضرم النار فيه، الفرق الخراسانية في جيش تيمورلنك، وهي أشد مَنْ على الأرض عداءً لأهل الشام عموماً،

---

(١) عربشاه/ ٣٥٠.

(٢) انظر وصف ابن بطوطة للجَامع الأموي، كما كان سنة ٧٢٦ هـ في عهد ملك الأمراء تنكز في رحلة ابن بطوطة، طبع مؤسسة الرسالة ١٩٧٥ ١/ ١٠٠ ـ ١٢٣، وستجد أيضاً وصف دمشق المملوكية في أزهى عصورها.

والأمويين خاصَّةً، وذلك انتقاماً من الأمويين الذين بنَوْه. . . وتلك قمة المأساة. . .

وكالعادة، فقد زعم مؤرخو الفرس، أن حريق دمشق كان قضاءً وقدراً، لأنّ معظم البيوت كانت من الخشب المدهون، ولذلك تظاهر «شاه ملك» ورجاله بإطفاء النار، ولاسيّما في الجَامع الأموي، ولكن بعد فوات الأوان.

ولو أنّ حريق الجامع تم بدون رغبة تيمورلنْك، لانتقم من الفاعلين، ولكنه تم برضاه وبعلمه، وفي أحسن الأحوال، فإنه إن لم يكن أمر بإحراقه، فإنه لم يَسُؤْهُ. . .

أما المؤرخ الفارسي «شرف الدين» فقد عزا حريق الجامع إلى غضب الله على أهل الشَّام(١) كما عزا انتهاك الأعراض إلى الجنود الذين هاجوا عندما سمعوا من تيمورلنك مدى «ظلم أهل الشام لآل علي بن أبي طالب»، ولكن شرف الدين هذا، نسي أن يقول لنا إن كان حريق الشام من غضب الله تعالى، فهل غضب أيضاً على الجامع الأموي، وهو بيته وأقدم مسجد في الإسلام بعد الحرمين الشريفين والمسجد الأقصىٰ؟.

وقد استمر النهب العام ثلاثة أيام، كان آخرها يوم الجمعة الثاني في شعبان ٨٠١ هـ ـ ١٨ آذار ١٤٠١ م.

ويقول المؤرخ الدمشقي ابن عربشاه:

«فأقسم بالله لقد كانت تلك الأيّام علامة من علامات يوم القيامة، ولقد كان أشد شيء على دمشق حريقُها، لا ما أخذهُ تيمُورلنْك»(٢).

---

(١) لقاء/ ١٧١.

(٢) عربشَاه/ ١٧١، وانظر عن نكبة دمشق هذه، لقاء/ ١٥٤ ـ ١٧١ وإنباء الغمر ٢/ ١٣٧، والسلوك ١٠٥١/٣، والنجوم الزاهرة ٢٠/ ٢٤٦، ومآثر الإنافة ٢/ ١٩٢ ـ ١٩٣.

وقد أخذ تيمُورلنْك معه عند رحيله، كل الحاكة والمطرزين وصنّاع السّلاح والزجاجين والفاخوريين والبنائين، وجميع من بقي على قيد الحياة من أصحاب الحرف والصناعات النادرة.

ولمعرفة قيمة ما أخذه، نذكر أنه في أثناء مقامه بدمشق، طلب الأفاضل وأصحابَ الحرف والصنائع، وكان مغرماً بهم، فجاؤوا إليه، وهم يحملون ثوباً من الحرير الخالص المذهب، دون أن يكون فيه أي أثر للخياطة، مما أذهل تيمورلنك...

كما أنه عندما أمر ببناء قبتين على ضريحي أم سلمة وأم حبيبة، رضي الله عنهما، لم يستغرق بناؤهما معاً أكثر من خمسةٍ وعشرين يوماً، مع ما كان يعانيه أهل دمشق آنذاك من العنت والمصَادرات[1].

وبالإضافة إلى أصحاب الصّناعات، أخذ تيمُورلنك معه عدداً من العلماء والقراء والقضاة منهم:

١ ـ محيي الدين بن العز قاضي القضاة الحنفي، وذلك بعد أن عذّبوه، وسقوه الماء والملح.

٢ ـ ولده القاضي شهاب الدين أبو العباس.

وقد وصلا إلى تبريز، وأقاما بها فترة، ثم عادا إلى دمشق.

٣ ـ قاضي القضاة شمس الدين النابلسي الحنبلي.

٤ ـ قاضي القضاة الشافعي صدر الدين المناوي، الذي واجه تيمورلنك في مجلس العلماء وقد تركوه يغرق في نهر الزاب كما أسلفنا.

٥ ـ شهاب الدين أحمد بن الشهيد، وقد نقلوه إلى سمرقند وقاسى محناً وشدائد، ثم عاد إلى دمشق.

٦ ـ الأمير الكبير بتخاص، وقد مات غرقاً في الفرات.

(١) عربشاه/١٦٤، ومآثر الإنافة ٢/١٩٢ ـ ١٩٣.

٧ ـ القاضي ناصر الدين بن أبي الطيب، مات تحت التعذيب على الرغم من أن تيمورلنك زعم أنه سيضعه على رأسه...

٨ ـ تقي الدين بن مفلح، الذي لعب الدور الأكبر في تسليم دمشق لهم، وكان في أسرهم، وما كادوا يتحركون به حتى مات، فدُفن في دمشق.

٩ ـ برهان الدين بن القوشة، كان في سجن تيمورلنك ثم مات.

١٠ ـ عبد الملك بن التكريتي، خرج مع تيمورلنك طوعاً، فولاه ولاية «سيرام».

١١ ـ يلبغا المجنون: من المماليك، خان قومه، فولاّهُ تيمورلنك نيابة مدينة تدعى «ينكي كلاس».

وعلاوة على ذلك فقد أخذ معه مجموعةً من علماء حمص وحماة وحلب وطرابلس، ولم يطلق من أسره إلا الشرف موسى الأنصَاري والكمال بن العديم وابن الشحنة، وجماعة معهم، وكلهم من حلب.

وبما أن الناس على دين ملوكهم، فقد أخذ أمراؤه معهم عدداً كبيراً من الفقهاء والعلماء وحفظة القرآن الكريم وأهل الحرف والصناعات، بالإضافة إلى النسوان الجميلات، والصبيان والبنات والجواري والعبيد.

وأخيراً، وبعد ثمانين يوماً كاملة من العذاب والدمار والذل والهوان، وبعد أن لم يبق في دمشق إلا الأطلال، غادرها تيمورلنك يوم السبت الثالث من شعبان سنة ٨٠٣ هـ ١٩ آذار ١٠٤١ م، بعد أن انتقم من المدينة التي كانت في يوم من الأيام عاصمة لأعظم دولة في العالم، وتركها وهي أذلّ مدينة في العالم.

وعندما وصل إلى حلب في طريق عودته أصدر أمراً باعتقال كافة

أعيان المدينة، وهدم ما أُعيد بناؤه وإحراق المدينة ثانيةً، وهدم أبراج القلعة وسور المدينة.

ثم غادر حلب إلى البيرة، ولم يتعرض لها لأن نائبها سالمَهُ، فعيَّنهُ تيمورلنك نائباً لغزة، ثم وصل إلى ماردين، فاعتصم نائبها بالقلعة، فحاصره جنود تيمورلنك عشرين يوماً، ثم دمروا المدينة وانصرفوا في رمضان[1].

ونهبوا عينتاب للمرة الثانية، وأسروا نساءها، وأخذوا منها كل شيء حتى الدبس والأرز، بحيث ارتفع سعر غرارة القمح بعد رحيلهم من ٣٦٠ درهماً إلى ٣٦٠٠ درهماً...

وغادر الشام، بلا عودة في شهر شوال بعد أن عاث جنوده فيها فساداً عشرة شهور كاملة...

٩ ـ دمشقُ بعد رحيل تيمُورلنك:

وبعد رحيل تيمورلنك بيومين أي في الخامس من شعبان تحركت القوات المصرية لنجدة الشام، وذلك بعد أن بذل الأمير يلبغا السّالمي جهوداً جبارة لجمع الأموال وتجهيز الجيش، بتكليف من السلطان.

وما إن تحرك الجيش حتى عاد أدراجه بعدما وصلتْهُ أخبار عودة تيمورلنك إلى بلاده، واستولى الأمراء والجنود على كل الأموال التي بحوزتهم، وعادوا من جديد لممارسة هواياتهم المفضلة في الصيد والقنص ولعب الكرة في ميادين القاهرة ومتَنَزّهاتها، كأن شيئاً لم يكن.

أمّا دمشق، فكأن ما أصابها على يد تيمورلنك لم يكن كافياً، فسلَّط الله عليها وعلى جميع بلاد الشام، عقب رحيل تيمورلنك، جراداً

(١) النجوم ١٢/٢٦٥ ـ ونزهة النفوس والأبدان ٢/٩٠ ـ ٩٤.

لم تعهد مثله منذ قرون، أتى على الأخضر واليابس، وأصبح أعزة أهلها أذلة، وقد تاهوا في البراري يجمعون الجراد، ومخلّفات تيمورلنك، يبيعونها ليقتاتوا بثمنها، وأصبح الجراد طعام الغالبية العظمىٰ ممّن بقي في بلاد الشام...

ثم انتشر اللّصُوص والعيّارُون والذين لا خلاق لهم من الأراذل، فهجموا على الناس وصاروا ينهبون ويقتلون، وأتوا على ما بقي للناس من متاع وزاد... واستمر الحال على هذا المنوال، حتى عودة نائبها «تغري بردي» إليها، بعد أكثر من شهرين من رحَيل تيمورلنك في الخامس من شوال سنة ٨٠٣ هـ ـ أيار سنة ١٤٠١ م.

وقد استمرّ الخرابُ في دمشق، بعد رحيل تيمورلنك بمدة طويلةٍ، وسنورد فيما يلي مقتطفات مما أورده المؤرّخون، لأخذ فكرة عامَّةٍ عن حجم الدَّمار.

ففي شعبان سنة ٨٠٤ هـ ـ آذار سنة ١٤٠٢ م، أي بعد عام كامل من رحيل تيمورلنك، أقيمت الجمعة في الجامع الأموي وهو خراب، كما كانت المدينة كلها خراب لا أنيس بها ولا ساكن.

وصار السكان يبنون في الغوطة وخارج الأسوار، وأكثروا من ذلك، واستولوا على معظم أراضي الأوقاف، فنُودي في البلَد بالعودة إليها، وهُدمت البيوت التي بُنيت خارجها.

وبعد سبع سنوات أي سنة ٨١١ هـ ـ سنة ١٤٠٨ م، أمر نائب دمشق، شيخ المحمودي، أهل المدينة بعمارة مساكنهم والأوقاف التي في البلد.

ثم قرىء كتاب الناصر، بإلزام الناس بعمارة ما خرب من المدارس في دمشق.

ويقول «العَلْمَويّ» عند حديثه عن المدرسة «القَليجيَّة» شمالي الصَّادرية: «احترقت في فتنة «اللنك» سنة ٨٠٣ هـ، واستمرت «كوم تراب» إلى حدود سنة ٩٦٤ هـ - ١٥٥٦ م، حيث أعيد بناؤها»[١].

ويقول ابن قاضي شهبة في حوادث سنة ٨١٤ هـ - سنة ١٤١١ م، «وفي يوم الجمعة ثاني رمضان رأيتُ المؤذنين يسلمون ويؤذنون في المنارة الغربية، وأظنّهُ أول يوم أذِّن فيها بعد عمارتها من فتنة تيمُورلنك»[٢].

ويذكر «العَلْمويّ» أنّ المدرسةَ الجقمقية شمالي الجَامع الأموي، بقيت خراباً حتى أعيد بناؤها سنة ٨٢١ هـ - سنة ١٤١٨ م[٣].

أما القلقشنديّ فقد ذكر أنّ حارات دمشق وبيوتها كانت ما تزال مدمَّرةً حتى عهده في سنة ٨١٩ هـ - ١٤١٦ م، ولم يعمّر في دمشق إلّا القلعة لضرورات الحكم، وقد خصص لها ربع مجموعةٍ من القرىٰ والمدن هي:

- داريا وأريحا والقدس وغزة ونابلس، بالإضافة إلى أموال المواريث الحشرية والزكاة والمسابك ودار الضرب[٤].

ويزعم بعضُهم أن تيمورلنك قد أطلق سراح معظم الأسرىٰ، والحقيقة أن جنوده قد ناؤوا بما كانوا يحملونه من الأموال والمتاع، فشغلتهم هذه عن التيقظ لأمور أسراهم، فَفَرَّ معظمهم زرافات ووحدانا.

---

(١) مختصر الدارس للعلموي ص١٠٣.

(٢) ابن قاضي شهبة ٢/٢٩٥ - ٢٩٦.

(٣) مختصر الدارس/٨٢.

(٤) مآثر الإنافة للقلقشندي ٢/١٩٣، وأما ديوان المواريث الحشرية فالأصل فيه أن يرث الأموال التي لا وارث لها، وفي العصر المملوكي أصبح رجال هذا الديوان يرثون من كان له وارث ومن لم يكن له وارث على حد سواء، أي أنهم أصبحوا شركاء للورثة رغماً عنهم.

وعندما أعيد «أطلمش» إلى تيمورلنك، أُطلق من تبقى عنده من أهل الشّام، وكان معظمهم من العلماء، فعادوا إلى أوطانهم ليبدؤوا من جديد رحلة العمران والحياة، وقد بنوا وشيّدوا، ولكن هل يصلح العطار ما أفسد تيمورلنك؟[١].

ولقد أسفر اجتياحُ تيمورلَنْك لبلاد الشَّام عن نتائج بالغَةِ الأهميَّة. فمن الناحية العمرانيّة، تعرضت المدن التالية، لما يشبه التدمير الشامل، وهي:

- ملطية وأبلستين ودرنده، وزبطرة وكختا وكركر وحصن منصور وبهسْنا وقلعة الروم وعنتياب وتل باشر وكلّس وإعزاز وحلب والباب والرها ومعرة النعمان وحماة وبعلبك ودمشق.

وثمة مدن تعرضت لأضرار جزئية وهي:

- صفد وصيدا وبيروت وحمص والبيرة وراوندان وحارم وسرمين رشيزر وكرك نوح وطرابلس[٢].

ومن الناحية الاقتصادية تدهورت الزراعة لسنوات طويلة نتيجة الإبادة الجماعية التي قام بها تيمورلَنْك للإنسان والأرض على حد سواء، كما تدهورت الصناعة للسبب نفسه ولما جمعهُ تيمُورلَنْك من الأموال لأنّ الناس عجزوا عن بناء بيوتهم المهدّمة لما هم فيه من ضائقةٍ مالية، وبالتالي فقد تراجعت الصناعات لقلة الصناع من جهة، ولقلة القادرين على الشراء من جهة أخرىٰ، على أنّ ذلك بدأ يتحسن

---

(١) النجوم الزاهرة ٢/٢٤٦ وعربشاه/٣٥٠.

(٢) نزهة النفوس ٢/٩٣، ويلاحظ أن عدداً كبيراً من المدن المذكورة يتبع تركيا، وليس سورية، وقد حدث ذلك نتيجة تواطؤ فرنسا مع حكومة مصطفى كمال، بعد الحرب الأولىٰ، ثم ضم لواء الإسكندرون إلى تركيا، وكل هذه المناطق كانت طوال العصر المملوكي تابعة لبلاد الشام.

تدريجياً، ولكن الوضع لم يعد لما كان عليه سَابقاً.

ولعل من أهمّ النتائج التي تمخّض عنها اجتياح تيمورلنْك لبلاد الشام اقتران اسمه بأهل دمشق خاصة من دون سائر بلاد الشّام الأخرى، ولسنا نجد لذلك سبباً، بعدما قدمناه من وقائع.

لقد شملت لعنة تيمورلنك بلاد الشام كلها، وإن كان ثمة مدينة يمكن أن تزهو على بقية المدن، لنجاتها من تيمورلنك فهي مدينة حمص فقط، أما بقية المدن، ولاسيّما حلب وحماة فإنها تعرضت لمثل ما تعرضت له دمشق، بل إن حلب سعدت بلقاء تيمورلنك وجنوده، مرتين: في الذهاب، وفي الإياب...

وقد أكثر الشعراء من رثاء بلاد الشام عامة، ودمشق خاصَّةً بعد كارثة تيمورلنك، وكان بودّنا إثباتُ شيء من هذه المراثي، لولا أن الشعر العربيّ في تلك العصور كان يتصف بالبرود، كما أن ما جرى كان أكبر من أن يُحيطَ به نظم من الشعر، أو نثر من الخطب.

أما تيمورلنْك فقد استطاع أن يقيم علاقات ودٍّ وصفاء ومودة مع الناصر فرج ووقَّع معه «معاهدة سلام» خُتمت بقول الناصر «يا أوّل الصفو هذا آخر الكدر»، وتُوّجت المعاهدة بالقبض على ابن أويس وقرا يوسف، وإطلاق سراح الرجل المشكل «أطلمش» وتبودلت الهدايا بين الطرفين...

وظن الناصر أنَّه قد كُفي بذلك شر تيمورلنك، لكنه سرعان ما أرسل للناصر برسولين ومعهما «خلعة» له ليكون نائبه بمصر ويخطب فيها باسمه، ليس هذا فحسب، بل إن تيمورلنك، طلب من الناصر مجموعة من مدن الحدود، منها: الأبلستين، وملطية، وكركر، وقلعة المسلمين، والبيرة، وغيرها، فأُسقط في أيدي المماليك، وأدركوا أنهم قد خُدعوا بهذا الرجل، كما خُدع به غيرهم، وخافوا من عودته إليهم،

لكن الله تعالىٰ كان له بالمرصَاد، فمات في كانون الثاني سنة ١٤٠٥ هـ وهو في قمة مجده، وذروة جبروته.

وبموته انهارت إمبراطوريته، وكأنها لم تكن، وعادت الحياة من جديد، إلى الأراضي والبلاد التي رزحت تحت حكمه من الشام إلى الصين، وكان أمرُ الله قدَراً مقدُوراً...[1].

(١) عن فترة الصفاء بين تيمورلنك والمماليك انظر:

صبح الأعشى ٧/٣٢٠ ـ ٣٣٠، حيث تجد نص رسالة الناصر فرج إلى تيمورلنك، ونصّ المعاهدة بين الطرفين، وانظر أيضاً:

الروضة ٢/١٩٨، وإنباء الغمر ٢/٢٦٤ و ٣٥٦، والسلوك، والنجوم الزاهرة، ونزهة النفوس في حوادث السنوات من سنة ٨٠٣ ـ سنة ٨٠٦ هـ.

١ ـ جدول زمني لأهم الحوادث في غزو تيمورلنك

١ ـ ولادة تيمورلنك، ٨ نيسان ١٣٣٦ م.

٢ ـ بداية حكم الناصر فرج، ٢٠ حزيران ١٣٩٩ م.

٣ ـ سقوط سيواس وبهسنا وعينتاب وبزاعة، آب ١٤٠٠ م.

٤ ـ سُقوط حلب، السبت ٣٠ تشرين الأول.

٥ ـ سُقوط قلعة حلب، الثلاثاء ٢ تشرين الثاني.

٦ ـ سقوط حماة بيد ميرزاشاه، الثلاثاء ٢ تشرين الثاني.

٧ ـ مُغادرة تيمورلنْك حلب، ٢٠ تشرين الثاني.

٨ ـ دخول تيمورلنك حمـاه، ٩ كانون الأول.

٩ ـ وصول السلطان الناصر إلى دمشق، ٢٢ كانون الأول.

١٠ ـ وصول تيمورلنك إلى دمشق، ٢٣ كانون الأول.

١١ ـ مفاوضات الصلح، ٣ و ٤ كانون ثاني ١٤٠١ م.

١٢ ـ انسحاب السلطان، فجر الجمعة ٧ كانون الثاني.

١٣ ـ حصار القلعة، ١٠ كانون الثاني.

١٤ ـ بداية المصَادرات، ١٥ كانون الثاني.

١٥ ـ توزيع دمشق على الأمراء، ٢٧ شباط.

١٦ ـ سقوط القلعة، ٨ آذار.

١٧ ـ حريق دمشق والجامع الأمويّ، الأربعاء ١٦ آذار.

١٨ ـ مغادرة تيمورلنك دمشق، السبت ١٩ آذار.

١٩ ـ وفَاته، كانون الثاني ١٤٠٥ م.

المصَادر وَالمَراجع

نذكر فيما يلي أهمّ المصَادر والمراجع التي اعتمدنا عليها، مع تقريظها، وبيان أهميتها، لتكون عوناً لمن أراد التثبت من حوادث الكتاب، أو الاستزادة منه، وقد رتبناها بحسب أسمائها، ليسهل الرجوع إليها.

١ ـ الأعلاقُ الخطيرةُ في ذكر أمراءِ الشّام والجزيرة:
تأليف عزّ الدين بن شداد المتوفى ٦٨٤ هـ.

وقد نشره المعهد الفرنسي للدراسات العربية في دمشق، في ثلاثة مجلدات:

١ ـ المجلد الأول: بتحقيق «دومينيك سورديل» وقد نشر سنة ١٩٥٣ م.

٢ ـ المجلد الثاني: بتحقيق الدكتور سامي الدهان ونشر سنة ١٩٥٦ م.

٣ ـ المجلد الثالث: بتحقيق الدكتور سامي الدهان أيضاً ونشر سنة ١٩٦٢ م.

وقد اتخذ التحقيق طابعاً رسمياً، لأن المحقق صرف جهده في مقارنة الفروق الضئيلة بين النسخ، وترك أهم شيء في التحقيق، وهو شرح المصطلحات والمفردات المملوكية، وكذلك شرح الأماكن والمساجد والمدارس، كما تقتضي قواعد التحقيق، وذلك ليستفيد منه القارىء على الوجه الأكمل.

أمّا الكتاب نفسه، فهو عظيم الأهمية، لأن مؤلفه سجّل فيه ملحوظاته وآراءه عن الفترة التي عاشها، ولاسيما فترة اجتياح هولاكو لبلاد الشام، ووصف المدارس والمساجد والخوانق والزوايا والربط بدقة متناهية، وعرّف حالها بعد نكبة هولاكو، وقد استمرت حوادث الكتاب حتى سنة ٦٨٠ هـ ١٢٨١ م.

٢ ـ إنباء الغمر بأنباء العمر:

تـأليف الحافظ أحمـد بن علي الشهيـر بـابن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢ هـ وهو كتاب في التاريخ والتراجم من ٧٧٣ هـ ـ إلى ٨٥٠ هـ، ١٣٧٢ ـ

١٤٤٩ م وقد جعله المؤلف ذيلاً لتاريخ ابن كثير «البداية والنهاية».

وقد حقق الشيخ محمد دهان الجزء الأول منه، ونشره في دمشق سنة ١٩٧٠ م مع استدراكات لعبد الباسط الحنفي، وبدر الدين العيني. وكان الدكتور حسن حبشي قد بدأ بنشر هذا الكتاب كاملاً في القاهرة منذ سنة ١٩٦٩ م وانتهى منه سنة ١٩٧٣ م في ثلاثة أجزاء، لكن النشر لم يكن علمياً، لوجود أخطاء كثيرة في النص وعدم شرح المفردات والاصطلاحات المملوكية الواردة فيه.

والكتاب يسد ثغرة واسعة في تاريخ المماليك.

٣ - بدائع الزهور في وقائع الدهور:

تأليف محمد بن إياس الحنفي المتوفى ٩٣٠ هـ.

وللكتاب عدة طبعات، وقد اعتمدنا على طبعته الأولى في بولاق ١٣١١ هـ، وهو يتناول تاريخ مصر منذ أقدم العصور وحتى ٩٢٨ هـ - ١٥٢٢ م. والجزء الأخير أهم ما فيه.

٤ - تاريخ بُخارى:

تأليف أرمنيوس بن فامبري.

وقد نشرت مختارات منه ملحقة بكتاب «عجائب المقدور في نوائب تيمور» وفي الكتاب معلومات هامة ونادرة عن تيمورلنك، وهو يعكس وُجهة النظر الغربيّة في ذلك الرجل. وقد طُبع الكتابُ في القاهرة سنة ١٩٧٩ م.

٥ - تاريخ البرازلي:

تأليف الشيخ علم الدين البرزالي المتوفى ٧٣٩ هـ.

واسمه الأصلي «المقتفى لتاريخ أبي شامة» لأن مؤلفه جعله ذيلاً على تاريخ أبي شامة «الروضتين وذيله».

والكتاب مخطوط، لم ينشر بعد، ويقع في قسمين أساسيين:

القسم الأول ويشمل الحوادث حتى نهاية ٧٢٠ هـ - ١٣٢٠ م وهو موجود ويقع في جزأين:

الأول من سنة ٦٦٥ هـ - لغاية سنة ٦٩٨ هـ.

والثاني من سنة ٦٩٩ لغاية سنة ٧٢٠ هـ.

أما القسم الثاني فهو مفقود حالياً، وقد ذكر المؤلف في نهاية القسم الأول، أن كتابه ينتهي بحوادث ٧٣٨ هـ - ١٣٣٧ م،.

ومن الكتاب نسخة في سراي طوبقيو بتركيا، ونسخة تشمل القسم الأول،

في معهد المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية بالقاهرة.

ولا شك أن الكتاب من أفضل ما ألف عن دمشق المملوكية بين ٦٦٥ هـ و ٧٣٨ هـ.

وقد استفدنا منه كثيراً ولاسيما في أيام حكم غازان لدمشق ٦٩٩ هـ، وهو أوسع وأفضل كتاب من نوعه، ولو نشر، فإنه يسدّ فراغاً كبيراً في تاريخ دمشق المملوكيّة. وقد قارنّا وضع دمشق يوم اجتاحها غازان، بوضعها يوم اجتاحها تيمورلنك، لأن البرازالي كان شاهد عيان للأحداث.

٦ - تاريخ ابن الفرات:

تأليف ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن الفرات المتوفى سنة ٨٠٧ هـ.

وقد حققه قسطنطين زريق وطبع في الجامعة الأمريكية في بيروت بين ١٩٣٦ م و ١٩٤٢ م، وصدر في ثلاثة أجزاء هي السابع والثامن والتاسع على النحو التالي:

الجزء السابع ويشمل الحوادث من ٦٧٢ هـ - ٦٨١ هـ.

الجزء الثامن ويشمل الحوادث من ٦٨٢ هـ - ٦٩٦ هـ.

الجزء التاسع ويشمل الحوادث من ٧٨٩ هـ - ٧٩٢ هـ.

وكما هو واضح فإن هناك نقصاً كبيراً بين الجزء الثامن والتاسع يصل إلى ٩٣ سنة، وهو نص يخلّ بالكتاب...

كما أن حوادث الجزء التاسع تنتهي قبل نهاية حوادث الكتاب بأحد عشر عاماً، لأن السخاوي[1] ذكر أن الكتاب يصل في حوادثه إلى سنة ٨٠٣ هـ، وهي أهم سنة على الإطلاق، لأنها تشمل حوادث دمشق يوم ابتليت بتيمورلنك، وقد استفدنا منه فيما يتعلق بالفوضى التي سادت يوم حاصرها السلطان برقوق.

وقد صدر بين ١٩٦٧ - و ١٩٧٠ في بغداد المجلد الرابع الذي يتناول الحوادث بين ٥٦٣ هـ - ٦١٥ هـ، وهي فترة الحروب الصليبية.

هذا عن أجزاء الكتاب وطبعاته، أما الكتاب نفسه فهو عظيم الأهمية لا سّيما أجزاؤه السابع والثامن والتاسع، لأنها تعتبر بحق موسوعة تاريخية شاملة لبلاد الشام ومصر في النصف الثاني من القرن الثامن، والمؤلف يورد أموراً دقيقة لم يفطن إليها أحد، ولو نشر كاملاً، لتضاعفت قيمته.

---

(١) الضوء اللامع ٨/٥١.

٧ ـ تاريخ ابن قاضي شَهبة:

تأليف أبي بكر بن أحمد الأسدي الشهير بابن قاضي شُهبة والمتوفى سنة ٨٥١ هـ.

وقد اختصر المؤلف كتابه هذا من مؤلفه الكبير الذي جعله ذيلاً على تاريخ الذهبي والبرزالي وابن كثير.

وقد نشر المعهد الفرنسي الدراسات العربية في دمشق سنة ١٩٧٧ الجزء الذي يعالج الحوادث من ٧٨١ هـ ـ ٨١٠ هـ، بتحقيق عدنان درويش.

والمؤلف ينقل عن تاريخ شهاب الدين أحمد بن حجيّ الذي جعله ذيلاً على تاريخ ابن عساكر.

والكتاب على شاكلة تاريخ ابن الفرات وله الأهمية نفسها لو نشر كاملاً.

٨ ـ تيمورْلنْك:

تأليف الدكتور مظهر شهاب.

وقد تقدم به لنيل شهادة الدكتوراه من الجامعة اللبنانية سنة ١٩٨١ م، وهو أوسع كتاب بالعربية عن تيمورلنك، وقد بذل فيه المؤلف جهوداً مضنية، وتناول فيه كل ما يهم القارىء عن تيمورلنك وعصره، وبلاده وحروبه وآثاره، فهو موسوعة كاملة عن تيمورلنك.

٩ ـ تيمورلنْك:

تأليف «هارولد لامب».

تعريب عمر أبو النصر، طبع في بيروت ١٩٣٤ م.

والكتاب علميّ وجيد، وفيه معلومات قيمة، من وجهة النظر الغربية.

١٠ ـ الحوادث الجامعة في المائة السّابعة:

تأليف كمال الدين بن الغوطي المتوفى سنة ٧٢٣ هـ.

وقد طبع في بغداد سنة ١٣٥١ هـ، وأهم ما فيه دخول هولاكو بغداد، وتحركه نحو الشام، والكتاب في مجمله يتناول تاريخ العراق. لا تاريخ الشام.

١١ ـ الدرة المضيّة في الدولة الظاهرية:

محمد بن محمود بن صصرىٰ.

وقد حقق الكتاب «وليم برنير» وطبع في كاليفورنيا سنة ١٩٦٣ م، وهو كتابٌ علميّ موسّع يتناول الحوادث منذ سنة ١٣٨٩ م وحتى سنة ١٣٩٧ م في عهد الملك الظاهر برقوق، وقد فصّل الحوادث الداخلية بإسهاب تام، ولكن يؤخذ عليه كثرة

الاستطراد والأشعار، ويبقى مع ذلك مصدراً متميزاً لمصر المملوكيّة عشية دخول تيمورلنك إلى بلاد الشّام.

١٢ ـ رحلةُ ابن بطوطة:

تـأليفُ محمّد بن عبد الله اللواتي، المعروف بـابن بطوطـة، والمتـوفى سنة ٧٧٩ هـ.

والكتاب غني عن التعريف، وقد استفدنا منه في مقارنة وضع دمشق العمراني والحضاري يوم دخلها ابن بطـوطة سنة ٨٢٦ هـ، بما آل إليه حالها بعد دخول تيمورلنك.

١٣ ـ رسالة أبي بكر بن حجة الحمويُ المتوفى سنة ٨٣٧ هـ:

رسالة كتبها من دمشق إبان محاصرة تيمورلنك لها، وهي مخطوطة وتقع في أربع ورقات، وأسلوبها مسجّع ومملّ، لكن فائدتها كبيرة.

١٤ ـ روضَةُ المناظر في أخبار الأوائل والأواخر:

تأليف أبي الوليد محمد بن الشحنة الحنفي المتوفى سنة ٨١٥ هـ.

وهو مطبوع على هامش الجزأين الحادي عشر والثاني عشر من كتاب الكامل لابن الأثير، وقد طبع في القاهرة سنة ١٣٠٣ هـ وأهمية الكتاب في أن مؤلفه سجل لقاءه، ولقاء علماء حلب بتيمورلنك، وكان شاهد عيان للكوارث التي نزلت بحلب على يد تيمورلنك.

١٥ ـ السلوك لمعرفة دول الملوك:

تأليف تقي الدين أحمد بن علي المقريزي المتوفي سنة ٨٤٥ هـ.

وقد طبع طبعة ممتازة ومحققة في مطبعة دار الكتب بالقاهرة في أربعة أجزاء، وأثني عشر مجلداً، وقد ذيل الجزء الأول منه بحواشٍ وملاحق وفهارس زادت من قيمته والكتاب يبدأ بتاريخ الأيوبيين وينتهي بحوادث سنة ٨٤٢ ـ سنة ١٤٤٠ م.

وهو من أدق الكتب عن تاريخ المماليك، ويمتَازُ عن كتاب «النجوم الزاهرة» بتسلسله الزمني المنطقي، وسهولة الرجوع إليه، ودقته فيما يورده من أمـور. ولاسيّما في الجزء الرابع والأخير.

١٦ ـ الضوء اللامع لأهل القرت التاسع:

تأليف شمس الدين محمد بن عبدالله السخاوي، المتوفى سنة ٩٠٢ هـ.

طبع في مطبعة القدسي بالقاهرة بين ١٣٥٣ و ١٣٥٥ وصدر في اثني عشر جزءاً.

وهو كتاب في التراجم، ويُعدّ من أفضل كُتب التراجم في القرن التاسع، وقد تفوق فيه السخاوي على أستاذه ابن حجر في الدرر الكامنة، ويؤخذ على السخاوي شدته في نقد المترجم لهم، ورميهم بما ليس فيهم، لذا يجب أن يؤخذ ما فيه بحذر.

١٧ ـ العَالم الإسلامي في عصر المغول:

تأليف «برتولد شبولر».

ترجمة أسعد عيسى، وقد طبع في دمشق سنة ١٩٨٢ م.

وهو كتاب وثائقي جيد في موضوعه، ويشكل مع كتاب «مغول إيران بين المسيحية والإسلام» مصدراً ممتازةً لتاريخ المغول وعلاقتهم بالإسلام.

١٨ ـ عجائبُ المقدور في نوائب تيمور:

تأليف أحمد بن محمّد بن عبدالله الدمشقي، المعروف بابن عربشاه، والمتوفى سنة ٨٥٢ هـ.

وللكتاب أكثر من طبعة، وقد اعتمدنا على طبعة القاهرة سنة ١٩٧٩ م التي حققها علي محمد عمر وتقع في ٤٢٢ صفحة.

والتحقيق جيد، والكتاب من أشهر الكتب القديمة التي وضعت عن تيمورلنك، لأن مؤلفه «ابن عربشاه» دمشقي، أجبر على الهجرة مع أبيه، وهو صغير إلى سمرقند، مع من هاجروا من دمشق، وقد أقام في سمرقند وتعلم عدة لغات، واطلع على عادات أهل تلك البلاد ومدىٰ اعتقادهم بتيمورلنْك، وقد وصف في كتابه كل ذلك مُفصّلاً.

ولم يؤلف الكتاب إلا سنة ٨٣٩ هـ، كما صرّح هو بذلك أي بعد أربع وثلاثين سنة من وفاة تيمورلنك، لذلك لا يُعدّ معاصراً له.

ومن عيوب الكتاب السجع المملّ الذي زاد في حجمه وأنقص من قيمته، وجعل الاستفادة منه صعبة للغاية، ومع ذلك يبقى هذا الكتاب من أهم المصادر عن تيمورلنك، وكما قدمنا فقد ألحق به مختارات من كتاب «تاريخ بخارىٰ». وابن عربشاه شديد النقد لتيمورلنك، وربما كان من أشد من كتب عنه عداءً له.

١٩ ـ العقود الدرّية في مناقب ابن تيمية:

تأليف محمد عبد الهادي المتوفى سنة ٧٢٤ هـ.

وقد طبع في مصر سنة ١٩٣٤ م.

وهو مؤلف ممتاز عن ابن تيمية، يُعنى بأخبار مساجلاته الفقهية مع خصومه، وقد أبرز الكتاب دور ابن تيمية في السيطرة على الأوضاع السياسية في دولة المماليك، وبين دوره الفعال إبان موقعة شقحب وما سبقها، وقد قارنّا موقفه هذا، من موقف عالم الشام الحنبلي الآخر: تقي الدين مفلح مع تيمُورلنك.

٢٠ ـ لقاء ابن خلدون وتيمورلنك:

وهي نصوص منتقاة من كتاب «التعريف بابن خلدون».

اختارها وعلق عليها والتر ـ ج ـ فيشل.

ونشرتها دار الحياة في بيروت ـ بدون ذكر تاريخ للنشر.

وترجم النصوص محمد توفيق.

وأهم ما في الكتاب تعليقات فيشل ذات الأهمية الكبرىٰ، لأنها تحتوي على أدق المعلومات عن تيمورلنك وابن خلدون، وهي معلومات رصينةٌ ودقيقة بحيث زادت على حجم النصوص نفسها، ولذا يُعدّ الكتاب على درجة علميّة عالية من الدقة.

٢١ ـ مغُول إيرَان بين المسيحيّة والإسلام:

تأليف الدكتور محمد مصطفى بدر ـ القاهرة، لا تاريخ للطبع، والكتاب مختصر، لكنه من أفضل الكتب التي تناولت علاقة المغول بالمسيحية والإسلام، لأن المؤلف متخصص في تاريخ المغول، ويتحدث عن علم تام، والكتاب علمي ورصين، على إيجازه.

٢٢ ـ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار:

ويعرف بخطط المقريزي.

تأليف تقي الدين أحمد بن علي المقريزي، المتوفى سنة ٨٥٢ هـ.

وقد طبع في مطبعة النيل بالقاهرة بين سنة ١٣٢٤ هـ وسنة ١٣٢٦ في أربعة أجزاء، والكتاب غني عن التعريف، وهو من أفضل كتب الخطط، في عصر المماليك، ولا يُضاهيه إلا الخطط التوفيقية لعلي مبارك.

٢٣ ـ النجوم الزاهرة في ملك مصر والقاهر:

تأليف جمال الدين أبي المحاسِن يوسف بن بردي الأتاكي المتوفى سنة ٨٧٤ هـ، وهو من الكتب الشاملة، يتناول تاريخ مصر منذ الفتح الإسلامي،

حتى أواسط القرن التاسع، وقد اعتمدنا على الطبعة المصورة عن طبعة دار الكتب سنة ١٩٦٣.

وقد ذيله بكتاب سماه «حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور» جعله تاريخاً للربع الثالث من القرن التاسع، كما ألف كتاباً ثالثاً، يُعدّ تتمة له وسماه «المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي» وهو كتاب موسع في التراجم، والكتب الثلاثة المذكورة يتم بعضها بعضاً.

وقد صدر الكتاب في ستة عشر جزءاً.

ويمتاز بالدقة والتوسع، والربط بين الحوادث، كما ينفرد بصفة لا توجد في غيره، وهي أن مؤلفه مملوكي خبير بأسماء المماليك وعاداتهم وطباعهم، وهو مع ذلك لا يجامل أحداً منهم بل ينطلق من منطلق إسلامي صحيح، وكان السلطان برقوق، قد تزوج بعمته، أخت أبيه شيرين، والده الناصر فرج، ولذلك كان أقرب المؤرخين للأحداث، الأمر الذي جعله ينفرد بذكر أخبار لم يذكرها غيره.

وهو ينقل عن المقريزي واليونيني وغيرهما.

لكن مشكلة الكتاب تكمن في الطريقة الغريبة التي صَنَّفَهُ بها، فهو يذكر تاريخ السّلطان وما جرى في عهده من الحوادث حتى وفاته، ثم يعود فيذكر الحوادث سنة بعد سنة، فلو أراد الإنسان الاطلاع علىٰ حادثه جرت مثلاً سنة ٧٩٤ هـ. فقد لا يجدها إلا في حوادث سنة ٧٨٥ هـ، أو العكس، وفيما عدا ذلك فالكتاب موسوعة شاملة لعصر المماليك.

٢٤ ـ نزهة النفوس والأبدان:

علي بن داود الصيرفي المتوفى سنة ٩٠٠ هـ.

والموجود منه الجزء الذي يتناول تاريخ المماليك منذ عهد السلطان الظاهر برقوق، وحتى بداية عهد الأشرف قاينباي.

وقد حقَّقه حسن حبشي وطُبع في القاهرة سنة ١٩٦٩ م في ثلاثة أجزاء، وهو يشكل مع النجوم والسلوك وبدائع الزهور مصادر ممتازة لمصر المملوكية.

وللمؤلف كتاب آخر سماه «إنباء الهصر بأنباء العصر» وهو من أفضل كتب التاريخ للنصف الثاني من القرن التاسع، ويُشكّل مع «حوادث الدهور» مصدراً موسّعاً للغاية للفترة المذكورة، فيما يتعلق بتاريخ مصر والشام.

وثمة مراجع عديدة ذكرت في الهامش لا داعي لذكرها هنا.

المصادر الأجنبية

٢٥ - **Introduction à L'histoire de L'Asie Leon Cabin. Paris 1891 .**

٢٦ - **Histoire des Mongoles. D'Hosson .**

وهو كتابٌ علمي رصينٌ في تاريخ المغول، وقد طُبع في أربعة أجزاء في لاهاي وأمستردام بين عامي ١٨٣٤ و ١٨٥٢ م.

٢٧ - **La flor des estoires de la terre d'Orient.**

Hayton. Paris, imp. national 1906 .

تمت المصَادر

*